

و. محمد خنيفة

فاتناريا

الحاليم الأخير



إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي :
لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لبراعة الخيال هي :
لا حدود ..

إن جرس المحطة يذق ، وخبثان يتصاعد من مدخنة
القطار .. والمرشد العلول الذي يرشدها في أنحاء
(فانتازيا) يقف نالذ الصبر على باب القطار .. فلتنفذ
مقاعدها بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى .. عالم مدهش ورائع
وغير متوقع .. حيث لن نجد أنفسنا في عالمنا
وحيث لن نجد أنفسنا في عالمنا ..

إنها القصة التي لن نجد أنفسنا فيها .. إنها القصة
التي لن نجد أنفسنا فيها .. إنها القصة التي لن نجد
أنفسنا فيها .. إنها القصة التي لن نجد أنفسنا فيها ..

إنها القصة التي لن نجد أنفسنا فيها .. إنها القصة
التي لن نجد أنفسنا فيها .. إنها القصة التي لن نجد
أنفسنا فيها .. إنها القصة التي لن نجد أنفسنا فيها ..

١- فلتنذكر !

نتيجة تلك القراءات السياسية المتعددة في الفترة
الأخيرة ، وجدت (صبير) نفسها تُحمل حملاً إلى عوالم
(نثي جيفارا) .. رمز الثورة في القرن العشرين ..

إنها في العراق .. في تلك الفترة الصاخبة من
تاريخه حيث تهر المدافع الأمريكية في شوارع
بغداد لأن تنفجر بعوة ناسفة وضعتها المقاومة ..

تجد نفسها ضائعة كالقطعة الصغيرة وسط السيارات
المسرعة ، لولا أنها تقلل ذلك لتأخر العظم العصاب
بأقرب الذي يطلق عليه رجاله (سي عمارة) ، وهو
اسم بدا لها غريباً إن لم يكن سخيفاً ..

لغة أمير عجيبة تحيط بهذا السي عمارة .. إنه ملتج
بفرط في تخمين السيجار ويتكلم بلغة أقل ما يقال عنها إنها
عتيقة .. لغة الستينات الثورية ذات المذاق الاشتراكي
العميق ، ذلك من اللغة نفسها التي تلوح ببراعة أنيقية
لا شك فيها ..

إن (عبير) نفسها ثم تعد (عبير) .. إنها صطفية أرجنتينية شابة وجدت نفسها وسط هذه المنحمة ، وسط الدخان والنيون والهارود .. تلعب في يد رجال المقاومة ، لكن من عبارة يقرر تركها لسبب واضح هو أنها أرجنتينية .. الرجال يثرثرون أحياناً أنه من أصل أرجنتيني هو الآخر .. تكشف أن هذا السبب عبارة بمارس تقنيات عربية غريبة لكنها فعالة : تلقيم جثث القتلى .. قتل الأسرى الأمريكيين .. رفصة الموت .. استخدام الأنغام تحت الأرض وتفجيرها عن بعد .. كلها أساليب لا تتبعها المقاومة العراقية لكنها تسبب صداخاً للأمريكيين .. ثم إنه صارم جداً مع جنوده ويتابع كل شيء بالصرخ ..

نفس السؤال يطرحه العسكريون الأمريكيون .. هناك رجل يقود الثوار ويدخن السيجار ويقتل الأسرى .. المقاومة الإسلامية في العراق لا تفعل هذا .. إنه ملتج لكنه نوع آخر من التحصن .. يستعدون الجنرال (جيمس مورتون) أو هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليه وهو رجل مفاهيم مركزية كان يعمل سابقاً في العمليات الفدائية في بوليفيا .. إن الأمر يبدو له مألوفاً ..

إثر مواجهة في الشارع أوشكت على القضاء عليه يدرك (مورتون) إن هذا الخصم لا يشبه (جيلارا) .. إنه (جيلارا) نفسه ! البصمات تؤكد هذا .. لكن كيف تم هذا ؟

بعد تحقيقات مطولة يكتشف الحقيقة .. هناك من أخذ نسخاً من نسخة جيلارا الأصلية ، وأرسلها للصينيين الذين كانوا متقنين في الاستمساخ .. هكذا نشأ طفل صغير في الأرجنتين ليطلق ذات تربية جيلارا .. هذا الطفل صار اليوم جيلارا شاباً متحصناً لمحاربة الأمريكيين في أي مكان ، حتى وإن انقطعت علاقته بالمشروع الصيني القديم ..

أين يوجد أمريكيون يمكن أن تحاربهم ؟ في العراق طبعاً .. هكذا يدخل العراق ويكون هذه النواة الثورية التي لا تحظى بشعبية كبيرة بين الأهالي .. إنه يتكلم لغة المستعمرات التي لم يعد لها مكان .. لكن صلاته لفعالة والمجموعة التي تحيط به ذات كفاءة واضحة ..

عن طريق المزيد من التحقيقات ينجح (مورتون) في معرفة كعب (أبل) الخاص بهذا الجيلارا .. إنه ككل نواتج تجارب الاستمساخ يعاني عيباً جدياً .. إنه

عاجز عن تكوين الأحماض الأمينية الأساسية من ثم هو بحاجة إلى الحصول عليها في طعامه .. عن طريق صيد برفض التورط فيما هو أكثر يقوم الأمريكيون باستبدال عذبة التبولات .. ما قلوه له هو إن التبولات خالية لتكهم في الواقع وضمعوا فيها سمًا غامضًا من تلك السموم الخاصة بالمطابخ الأمريكية ..

لكن (جيفارا) يكتشف العذبة ، إلا أنه يتصلق النهمة بـ (غير) بالذات ، وهكذا يصدر عليها حكم الإعدام الثوري ..

الفوهة ملتصقة بصداها .. وصوت الـ (تليك) قادم لا محالة ..

هل تسيت شيئاً ؟
 * * *

الرجل يحدق في العذبة ، ويكتفركت يرضعها مثلك مثليها في قيلم (منافع لظفرون) حيث تم إعدام العذبة القارية الحساء في احتفال جماعي شبيه بهذا .. هذا ليس عادلاً .. الموت لحظة شديدة الخصوصية .. ليس من العدل أن تموت الفتاة وسط كل هؤلاء الرجال ..

٢- من فعلها ؟

« أتني لعمس على وجهي بأنم كل صفة توجنه إلى مظلوم في هذه الدنيا ، فليئما وجد الظلم فذلك هو وطني .. »
 تنس جيفارا

* * *

كما هو متوقع يظل النخ يصل منذ الطفولة ، إلى أن تنس التحفة التي تحتاج له فيها فعلاً ..

ها هي ذي وسط المخزن ، جالية على ركبتيها وفوهة المسدس تلتصق بصداها .. مؤلمة جداً .. فلايد أن الرصاصة التي ستخرج منها أكثر إيلاًماً .. لكن القريب أنها كتلت تشع ببرود ولا مبالاة غريبين كل هذا يقع لشخص آخر .. وفركت أنه لعد ميكانيزمات شفاف شهيبة ..

الرجال يحيطون بها في دائرة ، وتكررت يرضعها مثلك مثليها في قيلم (منافع لظفرون) حيث تم إعدام العذبة القارية الحساء في احتفال جماعي شبيه بهذا .. هذا ليس عادلاً .. الموت لحظة شديدة الخصوصية .. ليس من العدل أن تموت الفتاة وسط كل هؤلاء الرجال ..

(جيلارا) ينظر لها في ثبات منتظراً ما سيقره به ،
وقد صار منتظره أقرب شيء إلى الأسد في هذه
الإضاءة الخافتة .. لماذا أصر (ابن الهيثم) على أن
التعنين لا تشعان نوراً ؟ هي متأكدة من أن (جيلارا)
يشع نيراً من عينيه ..

لخيراً جاءها الصوت فقالت :

« لم أفعل .. ولا علم لي بالموضوع .. »

قل في صوت بارد :

« أأدغم فعل هذا ودرس هذا السم للتشفي .. رافقي
من الثوريين لن يفعلوا هذا .. من الذي جاء لمجموعتنا
سجدة ؟ »

قلت وهي تفكر :

« أنا طبعاً .. »

كانت تتحدث بطريقة آلية كأن شخصاً آخر يتكلم بدلاً
منها .. لهذا لم تعرف قط إن كانت إجاباتها خفية أم
راقعة الذكاء .. فقط كان عقلها يستغل هذا البرود خير
استغلال ..

كان يلوح بعطية من الكبسولات في وجهها .. عطية
عليها كتابة بخط اليد .. وأردف :

« .. عندما شككت في الأمر ، سمعت كبسولة في فم تلك
الكلب الضال الذي يحوم حولنا .. وكما توقعت .. »
« مات طبعاً .. »

« بل لم يحدث له شيء ! سموم المضطربات العرقزية
هذه لا تعمل بهذه القنطرة .. إنها تعمل في صمت وخفية ،
وغالباً ما يصاب الأطباء أنهم أمام مرض عضال ! »

كان المنطق عجيباً .. فلو مات الكلب لكان معنى هذا
أن الكبسولة سليمة .. لكنه أردف :

« شعرت أن هناك من عيث في حاجيتي .. عندما
تلحست العطية بعناية وجدت .. »

قلت بذات الطريقة الآلية :

« وجدت الشعرة في غير موضعها أو مفقودة .. »

الشعرة .. هي طريقة عتيقة جداً ، لكنها كانت تستعملها
بإفراط .. كانت تضع الشعرة محيطة بكراس مذكراتها
أو حاجيتها .. وهي الطريقة التي تثيق بها أنه ما من

أحد تسأل إلى درجتها .. بالطبع لم تكن أسرارها ذات أهمية على الإطلاق .. هي فقط مهمة لها .. وبطبيعة لم تكن هناك خطابات غرامية من معجب يذوب عشقا لأنها لم تكن من هذا الطراز الذي يروق للفتيان ..

فقط نظر لها (جيفارا) بدعشة .. ثم قال :

« إن كنت تعرفين موضوع الشعرة من حيثي .. »

قالت في إندها :

« لا يحتاج الأمر إلى ذكاء .. لا تلتصق ألتصق فتاة ..

وهذه العملية نسائية تمامًا إذا سمحت لي .. لكن الفتاة

لا تستعمل شعر لحياتها بل تستعمل شعرة من رأسها »

ما زالت القوة منتصفه بصدقها ، لكن (جيفارا)

مد يده ليخطف من حدة نظراته قليلاً .. ثم بعد حرقرة ..

وبدا أن هناك شيئاً جعله غير واثق من موقفه ..

قال بصوت أكثر هدوءاً :

« غريب .. لو كنت تعرفين هذا - وأنت كذلك -

لحرصت على ألا يتكشف أمره .. »

أبتعت ريقها .. هناك بعض الأمل .. ليس الموقف كلياً إلى الحد الذي شعرت به أولاً ..

لم تكن تملك أية فكرة عن الموضوع .. ما هذه الكمولات ؟ لماذا يتعاطاها ؟ هل هي لعلاج الربو مثلاً ؟

من انظم أن تموت ، وهي لا تعرف أي شيء عن الموضوع ..

نظر (تشي) لرجله الواقفين .. دارت عيناه الفتيان بينهم ثم قال :

« من منكم يعرف أهمية هذه الكمولات لي ؟ »

قال أحد الرجال في حذر :

« لا نعرف .. فقط نراك تتعاطى بعضها كل يوم ..

كلنا رأينا ذلك .. »

« الفتاة لم تفعل .. ثم ترني تتعاطاها فقط .. »

ثم ازدادت لهجته اتهاماً ، وقال :

« هناك من حيث بحاجةتي .. فمن منكم فعل ذلك ؟ »

كله يتوقع أن القاعل سوف يرفع يديه في حجل ..

قال أحد الرجال :

« لا أحد سوى القنائة .. »

« ومن سواها ؟ »

صمت الرجال وراحوا يتبادلون النظرات .. نفس المشهد الشهير والوجود المشككة في لوحة (دافنتشي) العشاء الأخير .. أين هو (يهوذا) ؟

المشككة هي أن تحديد القاعل صعب جداً .. كلهم ينتم في ذات المكان .. كلهم يستطيع البحث في حاجيات أي شخص .. كلهم قادر على الاختفاء بضع ساعات يتصل خلالها بالأمريكيين ..

راح يتأمل العيون .. لا يوجد فيها دليل .. أم .. ؟

في هذه اللحظة ودون أن يشعر أحد الممسن إلى حزامه .. لقد أنفى حكم الإعدام أو تم تأجيله .. ونهضت (عبير) شاعرة بأنها أضحت قرناً على ركبتيها .

قال (جيفارا) بلهجة امرأة لأحد الفتيات :

« (إيد) .. هات لي عتبة الكبسولات من الغرفة الداخلية التي كانت مزوداً ... سوف أعقد امتحاناً صغيراً لكم .. »

هز الفتى رأسه وتحرك في ذات اللحظة لتنى غصم فيها أكثر من واحد :

« لكن .. إنها في يدك يا سي (عسارة) .. »

ابتسم (جيفارا) ابتسامة وثقة ، على حين توقف الفتى (إيد) في منتصف المسافة وعاد ..

قال الفتى ، وهو ينظر للفتى في ثبات :

« نعم .. هذا صحيح .. الكل رأى عتبة الكبسولات في يدي .. لكن واحداً فقط عرف أنها ليست العتبة المقصودة .. هذه عتبة فيترامينات لا تشبه الأخرى في شيء وحملتها على سبيل التمويه .. واحد فقط عرف أن عتبة الكبسولات ما زالت في مكانها لأنه هو من سرقها وأعادها .. لقد ظل حذراً لكنه تصرف تلقائياً ودون وعى عندما طلبت منه إحضار العتبة .. ثمة سؤالان هنا : كيف عرفت أن العتبة ما زالت هناك ؟ وكيف كنت تتوهم أن تجدها ؟ لماذا لم تسألني عن

مكتها ؟ هلم .. لاجب .. إن قرأت للتشعورية كاشفة دفعا
 وقد تودى بحياة رجل القصاصات الثوري ، لكن من المؤكد
 أنها تودى بحياة الثقلين كذلك ! إن الأمر يشبه قصة
 الجاسوس النازي الذي قتل رجال المخابرات البريطانية
 يحاولون بكل الطرق جعله يعترف بأنه يلهم الألمانية ..
 جربوا كل شيء على مدى أشهر عدة .. في النهاية قال له
 الضابط البريطاني إنهم أسفون وإن يوسعوا الانصراف ..
 هكذا نهض شاكرًا .. فقط بعد فوات الأوان تذكر الجاسوس
 أن الضابط قتل ما قاله بالألمانية !

اعتبرت الكلمات في حلق الفتى ، فهلف بهراء على
 غرار :

« كنت قلت إنها في الغرفة الداخلية .. ما دمت
 طلبتها فهي ليست معك .. »

« هذا قد يكون صحيحًا .. لكن تذكرت أنني تركتك في
 غرفة جوار حاجيتي أكثر من مرة في الأيام السابقة ..
 تذكرت أنك أضعت نفسك في رجائي ، وأنت تحمل إعجابًا
 خفيًا بالحياة على الطراز الأمريكي .. كنت شبه متأكد
 أنني أردت أن أعطيك هذا الامتحان الأخير .. »

ثم أخذ شهيقة عتيقًا وقال :

« دحك من أهم الأملة .. وهو عينك .. هناك حينما
 هناك مثلث الروح .. »

لا تدرى (عبير) متى ولا كيف طرح الفتى أرضًا .
 ولا كيف صار في موضعها بالضيظ .. عندها أدركت
 أنها كانت أكثر ثباتًا وصلابة .. لقد راح الفتى يركض
 كالرضع ، وبدأ يحكي كل شيء منذ أصيب بالعصبية
 بسبب ردًا سعال صديقه في الحضرة ، حتى إبدال
 الكمبيوتر .. استغرقت الاعترافات نصف ساعة ، وكانت
 شائقة بحق ..

اصطحبه (جيلارا) لغرفة داخلية ومن جديد دار
 المزيد من الاستجواب ..

عندما عاد إلى المجموعة بدأ واضحًا أن الفتى يعرف
 فعوى للحظات القادمة .. لقد رجع على ركبتيه في وسط
 القاعة وأغمض عينيه ، وتلقى رأسه على صدره ..

« بناء على حكم المحكمة الثورية ، فإني أنفذ فيك
 حكم الإعدام لمحاولتك قتل النشئ .. »

وقبل أن نقول أو نفهم شيئاً نوت الرصاصة.

في هذه اللحظة فقط تكلت قواها عنها وراحت تبكي وترتجف ..

لقد كان هذا مصيرها منذ دقائق ..

الحق إن جيفرا كان حازماً لدرجة القسوة .. حتى لو كانت هذه مجرد طريقة لإيقاع الفاعل الحقيقي ، فقد عبت بأصابعها أكثر من اللازم ، وهو مثلك من أنها بريئة ..

نظرت له في شيء من الغمط وهو يتفح الدخان المتصاعد من فوهة مسدسه ، ثم يخرج نصف سيجار من جيبه ليبدسه بين شفتيه .. مزيج غريب من رائحة التبغ والبارود

قال دون أن ينظر لها :

- « الحقيقة أنه تسرع بالاعتراف .. لم أقل حجة دامغة واحدة عليه .. ربما لو صمد قليلاً لاستطاع تبرير تصرفاته بالتسرع أو سوء الفهم .. لكن ضميره كان مثلاً .. »

ثم هتف في الرجال :

- « تخلصوا من الجثة .. ثم استعدوا للرحيل .. نحن لا نعرف ما قلته للأمريكيين ... ربما كانوا يزحفون إلى مكاننا هذا الآن .. »

سألته في قلق :

- « هل تعتقد هذا ؟ »

قال هساً :

- « لا أظن .. لو أرادوا اللجوء لهذا لما استعدوا بالسم ، ولوجدت مدبراتهم لحاصرنا منذ ساعات ... »

هنا سمعت عواء طويلاً أليماً ..

أظنت برأسها من الباب فوجدت كلباً ضالاً يتكوى أليماً .. لقد بدأ الصم يعمل بنجاح تام ..

نوت الطفلة الثانية فتقوم الكلب سائلاً .. استدارت في هلع لتجد (جيفرا) بعيد مسدسه لعزاسه من جديد ، وقال وهو يلوذ بالسيجار :

- « لقد قام هذا الرفيق بعمله الثوري خير قيام ، فلا داعي لإطالة ألامه .. ألا ترين هذا معي ؟ »

٢ - جيفارا يجب أن يموت (وتكررها) ..

قلت له :

« لاحظت عدة صفات فيك ، لكن أهمها أنك لا تتردد في اتخاذ القرار .. »

قال وهو يرمي معلم الطريق :

« صفات الرعافة من أصعب الصفات .. يجب أن يقتر الزعيم على فهم كل شيء والإحساس بكل شيء .. لهذا تجنبن أن (جيفارا) عندما كان في كوبا وجد أنه من الأسهل عليه أن يقوم بدور الرجل الشقي ، ويترك الدور الأول لكاسترو .. لقد شعر على الفور بأن الرجل المتكبر هو كاسترو .. »

كانت نمائمه عن سبب اختيار هذا العنيل بالذات .. الحقيقة أن الأمر انتهى منذ زمن . وصارت مستوعبة تمامًا لحقيقة أنها تمشي جوار جيفارا .. الغريب أن إصراره على أنه ليس (جيفارا) بدا لها سخيلاً .. تذكرها بصديقتها (حنان) التي تحكى لها عن صديقة تهوى شاباً لا يشعر بحبيها .. تجيب وتلتفح لحنها

تعرف جيداً أن (حنان) تتكلم عن نفسها .. سرعان ما تتسيان القناع الواهي وتروح (حنان) تسأل : « وماذا أقول له ؟ هه ؟ هل تقترحين أن أتجاهله تمامًا ؟ » . الخ .. لقد تم تجاهل ضمير الشخص الثالث تمامًا ليحل محله ضمير الشخص الأول ..

كنت تعرف أن اللحظة قادمة عندما يتكف فيها عن الكلام عن (الرافق جيفارا) ويتكلم عن نفسه .. لكنها لن تبدأ ..

* * *

في هذا الوقت كان اجتماع صليب يدور في القيادة ..

كان (مورتون) قد اعتاد هذه المواقف .. مر بألف منها من قبل . ويعرف أنها تنتهي بالتمساره دومًا .. لهذا ظل يرقب الجالسين من خلف زجاج نظارته الذي لا يظهر عينيه أبدًا . وإنما يعكس إضاءة الغرفة ..

قال (وايلفراير) وهو يضرب الملعقة بيده :

« .. لقد وجدنا جثة عييلنا .. (جيفارا) قد كشف السر وأخذه .. »

- « من الواضح أنه جرب الكمبيوترات على كلب ..
لقد وجدنا جثته .. »

- « خطتك كانت مليئة بالثغرات وعميك لم يستغرق
الكثير من الوقت حتى يكشف نفسه .. »

وقال جنرال دين من الطراز منقطع الأنفاس بإبه :

- « كان يومنا من جهاز اتصال في ثياب العصيل
دون علمه ، ثم تقوم (الأباتشي) بقصف المواقع حسب
الإشارة .. »

قال (مورتون) بتحسن نكته وهو يتابع ما يقال بطريقة
بدت أقرب إلى الاستمتاع .. في النهاية قال في هدوء :

- « هذه الآراء تضيف لي خبرات عظيمة يا سادة ..
لكن إن كان هناك شيء أعتقد في هذا العالم فهو الحكمة
بأنرجي .. لدى في الولايات جاد هو أفضل شخص
في العالم بفكره بالحصان الرابع ، وبعد السباق هو أفضل
شخص في العالم بفكره بسبب عدم فوز هذا الحصان ..
لقد كنت الخيارات ، مفتوحة وقد رأيتوني أصل قم بل أحد
شيئا ولم تحفظ هذه الأفكار العبقريّة للسطح إلا الآن .. »

تبادل الرجال النظرات ..

بعد هزيمة من الصمت مد (وايلدفاير) يده إلى زوجة
لويسكي فصب لنفسه بعضًا من السائل الأصفر الشفاف
وتشممه قبل أن يجرعه مرة واحدة ، وقال :

- « الحق معك .. لكننا محبطون لأننا افقدنا هذا العسل ..
إن كل عمل كان يجب عدم التفريط فيه .. »

- « أنا أكثر حزناً ، لكن هذا لا يجب أن يمنعنا من
التفكير بشكل منطقي .. (جيفارا) قد عرف فكيف عرف ؟
الكمبيوترات قد تم التخلص منها فمن أين يأتي بالمزيد ؟ »

بروم ١

اعتزت الغرفة ونوى صوت الطلحار مروع .. الواقع أن
الأمير بدأ أقرب إلى هزيم الرعد منه لأي شيء آخر ..

وثب جميع الرجال من مقاعدهم وانحنوا جوار ملصدة
الاجتماعات ، فهم جميعاً من ذوي الخبرة العسكرية
ويعرفون معنى هذا الصوت ، فلم يقلقوا بالتقنون في بلاطة
كما يفعل المدنيون .. على حين اتخذ جندي البحرية الواقفان
على الباب وضعين قتاليين ممتازين .. الوحيد الذي ظل
جالساً حيث هو بذات أثبات كان (مورتون) .. فقط
قال وهو يشعل سيجاراً :

« قصف صاروخي .. هذه مشكلة أخرى صارت جزءاً من تسيج الحياة اليومي .. لكننا على الأقل نعرف أنه ليس (جيفارا) فهذا ليس أسلوبه .. »

نوى القطار آخر ، وتصاعدت صفارات جذر تعوي . وصرخ رجل في مكان ما ، وتلاعب الضوء في مصباح السطف .. لكن (مورتون) ظل حيث هو .. بعد كل هذه السنوات من الخطر يحتاج شيء أقوى كي يهزه .. إنه ممن الآن لكنه يتوقع أن أماته ثلاثين عاماً أخرى من النجاح ما لم يصب بالسرطان كعادة الغربيين متقدمي السن ..

نهض إلى القلعة وفتحها ، وفي الخارج كانت القوضى ضاربة لطنانها .. سيارات إسعاف تجرى هنا وهناك .. وجنود يتصايحون .. ولسان لهب يرتفع عشرة أمتار في الهواء ..

نظر إلى السماء ثم قال بعد دقيقة :

« أعتقد أن القصف توقف يا سادة .. يمكننا مواصلة اجتماعنا .. »

عاد الجنرالات إلى المناقشة في شيء من الكبرياء الجريحة ، وقال أحدهم :

« سوف نرسل الدوريات حالاً .. هؤلاء الأوغاد لن يفرؤا .. »

قال (مورتون) وهو يصب لنفسه بعض الشراب :

« ونحن تجدوا شيئاً .. لقد صار هذا الزوطين مملاً .. لكن هذه ليست مشكلتي على كل حال .. »

ثم مد يده إلى الملف أمامه على المكتب ، وأخرج صورة كبيرة لـ (تشي جيفارا) .. تلك الصورة التي انقطعت (كوردادا) لـ (جيفارا) وهو ينظر للمستقبل .. الصورة التي تحولت إلى ذلك الملصق الشهير ..

قال وهو يلوح بها :

« هذا هو خصمي الذي من أجله جئت .. منذ الستينات تعلمت أن علي أن أجد هذا الرجل وأفك به لأنه يمثل كل ما هو ضد لولايات المتحدة والحكم الأمريكي .. هذا هو خصمي وسوف أجده وأقهره كما فعلنا منذ أربعين عاماً .. »

قال أحدهم :

« هل لديك تقنية ما ؟ »

« التقنية طبعاً .. »

فلما في مسألة كانه يقرر حقيقة واقعة وأردف :

« في المستنات فلترنا به عن طريق الحقيقة ، ورهني هو أن أحد رجاله سوف يلين .. ذلك من أنه يتصرف برومسية قد تكون ساذجة أحياناً .. مثلاً هو ارتكب خطأ فادحاً عندما ذهب إلى الكونغو .. وارتكب خطأ أسوأ عندما ذهب إلى بوليفيا حسباً أن الماركسيين فكروا على مساهمته .. سوف يرتكب غلطة ما هنا وسوف يفلح اثنين .. »

ثم نظر إلى الصورة .. الحقيقة التي لا يعرفها هؤلاء هي أنه يقضي أكثر ساعات وحدته يحدق في هتين العينين ، ويحاول تخيل ما تفكران فيه .. هذه التقنية التي استعملها (مونتغمري) مع (روميل) كثيراً جداً في العامين .. هناك جزء ما من طريقة التفكير تعرفه من العينين .. لا مفاصل من تأمل العينين كي تفهم ..

سوف يحاول جيفارا تجنب المزيد من الأحمالي ، عندها يجب أن يقبل واحد من هؤلاء الانضمام للأمريكيين .. يقول أن يكون عميلاً جديداً وينلهم على جيفارا .. هذا هو الحل الوحيد بما أن النواة المحيطة به صلبة غلباً صعبة الاختراق ..

قال أحد الجنرالات الجالسين :

« تلقينا بعض الإخباريات عن وجوده هنا أو هناك .. خرجت طائرات الألباني وقصفت الأماكن التي قيل إنه فيها .. النتيجة يوماً محبطة .. أسيرة كاملة أو مجموعة أطفال ذهبت لمنهم للموت .. إن سمعنا تزداد سوءاً .. »
قال (مورتون) وهو ينظر له بنظراته العاصفة :

« لابد من حصار بين المستنيتين وإلا فلا حرب أصلاً .. ما يضايقي في عمليات كهذه هو القتل وليس موت الأطفال .. إن (جيفارا) يعتقد أننا دولة إمبريقية منافقة لا تتورع عن أي عمل وحشي من أجل زيادة عدد الثوالات في جيب قموطن الأمريكي .. الواقع أنه محق وإنني لمعجب بنفسه لكن علينا أن نستحق هذا الوصف وإلا لكان قلماً ! »

نظروا له في دهشة .. هذا الرجل لا يخجل من التصريح بما لا يريد أحد التصريح به .. الأمور واضحة تماماً وهو يتمتع بسلام نفسه لا بأس به ..

لهض (مورتون) مغافراً القاعة .. وفي الخارج كانت رائحة الحريق تزكم الأنفاس .. الكل يركض في كل صوب مع جو عام من الهستيريا ..

استقل السيارة فعلمته جوار المساق ، وضمت السيارة تشق طريقها خارج القاعدة بينما هو يرأس الفوضى من النافذة ..

(فيلثام) .. لا شك في هذا .. نفس العلامات التي يعرفها جيداً .. أعراض (فيلثام) .. إتنا نخسر هذه الحرب ونخسرها بسرعة .. لقد تورطنا في هذا المكان ، وصار الخروج يحتاج إلى معجزة ..

حتى في فيلثام كان الوضع أفضل ، لأنهم كفوا يواجهون عدواً له طول وعرض وارتفاع .. عدو له قائد وله معسكرات وله تنظيمات فيلثية .. القيت كونج .. أما هنا فلا أحد يعرف شكل العدو الذي يواجهونه بالضبط ولا مدى قوته ..

ثم يأتي هذا الأبله (جيفارا) ليزيد الأمور تعقيداً ..

لشد ما يكره الأيديولوجيات بأنواعها .. يكره أن يرى أحداً يفعل شيئاً دونما هدف واضح يمكن الإمساك به .. كسب مادي .. كسب استراتيجي .. لكن أن يقتل المرء من أجل مبدأ فهذا يبدو له رقيقاً إلى حد لا يوصف ..

ضبط (مورنون) على أسنانه في حركة عصبية يكره أن يراها أحد ..

سوف يجده وسوف يقتله .. ربما خزمت الولايات المتحدة وربما اضطرت إلى الخروج ، لكن (جيفارا) لن يكون ضمن من يحتفلون بعيد النصر ..

لقد انضم هو (مورنون) على ذلك .. وهو لم يعتد على أن يحدث بوعده التي قطعها لنفسه .. (جيفارا) ظفيرة جينية موجودة في الزمن والمكان الخطأ .. وعليها أن تختفى كما يجب أن يختفى أي ديناصور تراه في نيويورك اليوم ..

جيفارا يجب أن يموت ..

٤- الضرورة أحكام ..

« العالم لا يحتاج للنصائح بل للقدوة .. فكل الحمقى لا يفلتون عن الكلام »

تشى جيفارا

كانت الآن تحفظ أكثر تعليمات (جيفارا) بصدد حرب العصابات ..

كان يؤمن أن يوسع الإنسان أن يقطع من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً في الليل ، وهذا جعل قذافيها تتحولان إلى عكازين لا يمكن لها بصلة .. لكنها على الأقل لم تكن تعمل سلاحاً مثلهم .. بينما كان الرجل يحمل حوالي ٥٥ رطلاً (٢٥ كيلوجراماً) من القنابل .. وكانت سرعة المسيرة محدودة بسرعتها هي الآن (جيفارا) كان يقول : « إن سرعة الوحدة تتوقف على سرعة أبطأ فرد فيها .. »

كانوا الآن في ضواحي (بازل) .. الاسم الذي جعلها تشعر برغبة وهي تتذكر أيام (جلجاميش) عندما كانت هي (عشتار) .. يا لها من أيام !

إن مشكلة القنابل مشكلة دالة لرجل العصابات .. وعليه ألا يدخل أو قتال حتى لو كان موقفاً من قدرته على الفوز به إذا لم تتيسر له الفرصة لتجديد القنابل بسرعة .. لهذا كانت المجموعة تترك فرائس سهلة في أحيان كثيرة ..

كانت هذه الوحدة التي تعيش في الظلام الآن تتنقل من عشرة رجال .. وهو الرقم المفضل لدى (جيفارا) للزحف القليل ..

« القلة هي وحدتنا الأساسية .. وهي تضم عشرة مقاتلين يقودها ضابط برغبة ملازم .. كل أربع قتات تكون فصيلاً يقوده نقيب .. كل أربعة فصائل تكون رتلاً يقوده رائد .. »

لما عن الاتصال بالوحدات الأخرى قنابلًا يحمل هذا الرجل قنصاً ؟ إنه يدعو الحمام القزاج طبعاً !

من حين لآخر يكتب (تشي) رسالة بالشفرة ، ثم يطويها ويلفها في لفافة من رقائق الألومنيوم ثم يلتصقها إلى ساق حمالة .. ويطلق هذه الطريقة الثورية لتحمل تعليماته إلى الوحدات الأخرى ..

« ألا ترى أنها طريقة بدائية بعض الشيء ؟ »

« هذا هو سرها وسر قوتها .. إن مكالمات الهاتف المحمول يتم تتبعها من الأقمار الصناعية بسهولة تامة .. لا أحد يفكر في أسلوب بدائي كهذا .. وقد كان الحسام من أهم شهداء الحرب في الماضي حينما كانت التطعيمات للتجنود واضحة : افككوا أية حماية ترونها .. لكن لا أحد يفعل هذا اليوم .. »

صحيح أن (جيفارا) الأصلي لم ير هاتفًا محمولًا في حياته ، لكن خليفته قد استوعب العصر بسهولة ..

فجأة تعالى هدير الدبابات الذي لفته أنا (عبير) فأمر (جيفارا) رجاله بأن يتواروا ..

إبه ذلك الصوت الكريه .. صوت المحرك الذي ترتج له الأرض مع صرير الجنزير العلى ..

صوت الموت ..

ثم من بعيد ظهرت ثلاث دبابات أمريكية تمشى في صف واحد تحت جناح الظلام .. ثم عربة مفرقة ..

تجاهل (نثنى) نظرة مع أحد الرفاق فأعد الهلوكا .. لم تعد هناك ضرورة لكثرة الكلام .. مضى النظرة هو أن تعد الهلوكا لكن لا تطلقها .. إن طلقات الهلوكا ثمينة جداً لأن الفرد لا يقدر إلا على حمل ثلاث طلقات ..

عادة لم يكن (جيفارا) شديد الحماس للأسلحة الثقيلة ، وقد رأته (عبير) يترك مطعماً مضافاً لطلقات وجده في موقع .. هذه أسلحة تحرق التلغم ، بينما الأسلحة الخفيفة ، والهلوكا مهمة دائماً ..

تتوافق الدبابات على مسافات متساوية قرب أحد قبوت ..

فجأة يترجل من العربة المدرعة مجموعة من الجنود الأمريكيين .. يتقدمون نحو البيت ذي الطابق الواحد .. يوسعون الباب رغلاً ثم يهشمونه ويقف واحد في الخارج على حين يندفع الآخرون .. صوت صراخ .. صوت توسل ..

ثم يخرج ثلاثة من الجنود ضخماء الأجساد يجرون رجلاً ويلقونه على الأرض ..

تسمع (عبير) كلمات الحوار التي تحملها الريح عبر هذه المسافة :

« تكلم .. »

ثم واحد يقول لزميله :

« هذا العريس الأثلة لا يفهم الإنجليزية .. »

يحاول الفتى الاحتجاج ، لكن (ديثك) بتفدية ينهال عليه .. ثم تتوالى الترحلات مع كثير من الضحك .. على بابا يحاول الفرار . على بابا لا يفهم حرفاً ..

يكرر جندي أمريكي تسوق بالعربية الرديئة :

« تكلم في ضمن سلامتك .. هناك رجل ملتجئ يظن السيجار .. هل تعرف معنى السيجار ؟ هذا الرجل مصاب بالرئوي ويمشي مع حوالي عشرة رجال .. نحن نعرف أنه في هذه المنطقة .. هل رأيته ؟ »

يقول آخر :

« ربما كان منهم .. »

« سيكون هذا شيئاً يا على بابا .. »

الرجل لا يتكلم تلك الليلة الرعب .. ضربة أخرى على مؤخرة عنقه . ثم يقترح أحدهم طريقة إضفاء بعض التمرج على الأمسية ..

« على بابا يريد أن يلعب دور البطل .. سوف تربطه إلى جزيرة النهاية .. »

« واووو ! كقول ! »

من مكانها وسط الخراب راقدة على بطنها تراقب (عبير) المشهد الذي جعله ضوء الكشافات واضحاً .. إنهم لا يمزحون .. إنهم يربطون الرجل العريس الياباني إلى جزيرة النهاية بحيث صار وجهه للسماء ، وهو وضع لن يدوم طويلاً لأنه سينقلب لأسفل بمجرد أن تتحرك النهاية بضع خطوات .. سوف يتحول إلى طبقة من أسفلت الشارع .

« هلم يا على بابا .. تكلم ! »

صرخ الرجل وقد فهم ما يريد به :

« يا لكم من وحوش ! كيف أنكم وأنا لم أر شيئاً ولا أعرف عن تتكلمون ؟ »

« هذه فرصتك الأخيرة .. لو ظلت صامتاً إلى النهاية لعرفنا أنك صادق ! »

وبدا محرك النهاية يهبط مطلقاً سحابة كثيفة من الدخان ..

نظرت (عبيد) إلى جيفارا .. فوجدته ذا أهل العينين
والعينه ترتجف .. فعل شيئاً أرجوك ..

بالفعل كان عمله قد اقترب من النهاية .. أشر لاهل
الباروكا وهنس :

- « أطلق على برج النهاية .. اعترض من أن تصيب
الرجل .. »

ثم أشر لرجاله وهتف بصوت سمعه الأمريكان
بالتأكيد :

- « القصة ! أسقطوا الجنود الذين يحيطون بفنسى ! »

وخرج من مكانه مطلقاً وإبلاً من الرصاص على حشد
الجنود الأمريكيين الذين لم يجدوا وقتاً للإمساك بأسلحتهم .
وفي اللحظة ذاتها انفجر برجاً النهاية الأولى والثالثة ..

حاولت النهاية الثانية أن تدور حول نفسها وقد أدرك
قائدها الملازم (جيفرى) من (ميسوري) أنه وقع في
ذات التكمين الشهير .. مصيدة أرض الموت .. لكن
طلقة بلزوكا نمرت الجزيرة ..

كانت المجزرة شاملة قاسية ..

كان الرجل العربي مقبلاً إلى الجزيرة بلا حول ولا
قوة .. بصرخ بينما الطفلات تظهر فوق رأسه .. وترك
في طلع أن الجزيرة تتحرك . النهاية التي طار رأسها
تحاول التحرك .. هنا استقرت طلقة في الجزيرة المقابل
لنقلته عن المحور نهائياً وهذا الوحش الضاحك .

تعالى صوت الطفلات بينما الأمريكان يتمسكون
كالكذيب . وفجأة صرخ (تشي) وسط الضوضاء :

- « لا مزيد من الطلقات ! اقتصدوا في الأخيرة ! لقد
هلكوا جميعاً ! »

تكن بعض رجلاه وصلوا بإطلاق النار . وقد استهدت
بهم حملة الصروب . من ثم كرر أمره بعنف أكبر
وهتف في غيظ :

- « لو كان الأمر بيدي لأعطيتكم مسدسات لا تحوى
إلا طلقة واحدة حتى تستخدموا الأخيرة بقاء »

ثم انزعج من هدائه ذي الرقبة خنجراً مزق به قيود
العربي المقيد . وأمر رجلاه كعادة بأن يلغوا جثث القتلى
ويلغوا أسلحتهم .. لابد أن طارت تلك هوك قديمة ..

الحقيقة أن شعار القوات الأمريكية الشهير (لن نترك أحدا وراءنا) بدأ يتذبذب كثيرا مع عادة تلقيم جثث القتلى هذه .. لقد أصاب براعتهم في عمليات الإنقاذ في مقتل ..

وسرعان ما كانوا ينتهون في الظلام ومعهم العربى الذى كان سيقضى نحبه بعد دقيقة واحدة ..

لم يكن يريد الاشتباك ، لكن للضرورات أحكامها ..

٥- نهار صاحب ..

« لن يكون لدينا ما نحيا من أجله .. إن لم يكن لدينا ما نموت من أجله »

نشى جيفارا

فى موضع بين (بابل) و (الكوفة) أى نحو الجنوب أقام (جيفارا) معسكرًا صغيرًا مع رجاله .. كالعادة وسط مجموعة من المباني التى أحاطها القصف الأمريكى إلى خراب ..

بالطبع كانت السياسة عدم إشغال نار .. لابد من تناول العمليات وشرب الشاي الذى تم إعداده منذ يوم .. وهكذا جلس الرجال يأكلون عشاءهم ، على حين جلس (جيفارا) فى ذلك الموضع المعتاد له بعيدًا عن الزحام . وقد أعد لنفسه حجرين حجرين عليهما لوح من الخشب فيما يشبه مكتبًا بدائيًا لأنه لا يستطيع أن يعيش من دون أن يقرأ ويكتب . فقط جلست (هير) بقرية مكتسبة هذا الحق من ثروتها ومن (أرجنتينيتها) إن

صح التعبير . فناء وصطفية وارجنتيلية .. هذا يعطيها الكثير من المزاج هنا ..

اشعل لنفسه شجرة ثبتهها جوار الأوراق . ثم اشعل سيجارا وبدأ يفوض في عالم الكلمات .

رفع رأسه بينما الرجل قذى ثقفه والذي جلس وسط الرجال يلتهم الطعام البارد . ثم نداء بصوت خفيض هادئ :

« تعال يا (هسان) .. »

كف الرجل عن الأكل وتنهض مسرعا ..

كان في الثلاثين من عمره . وإن بدا كبير سنًا مع كل هذا الشيب في رأسه والمعاناة على ملامحه .. لكن عينيه كانتا تلمعان ببريق لا تخفنه العين .. يلمس فيصبا خفيفا باليا أحكم خلق (زرد) . وبالطبع كان الدم المتجمد على أنفه وشفتيه . فذلك المعاناة التي عاملها إياه الأمريكان لم تكن تشيلا ..

سأله (جيفارا) في رفق :

« هل أنت بخير ؟ »

« الآن بعد ما كنت أشعر بأنني في خير حال . »

« نحن قريبون من الكوفة .. يمكنك أن ترحل في أي وقت . أما إن كنت ترغب في البقاء معنا قليلاً فهذا من حقلك .. »

سأله (هير) :

« أين أسرتك ؟ »

نظر لها الرجل وابتنع ريقه :

« ليست لي أسرة .. »

« لم تتزوج ؟ »

ابتسم الرجل في مرارة وقال :

« لقد أقول إنه لم تعد لي أسرة .. لقد فقدت

زوجتي (زبيدة) وثلاثة الأطفال في قصف منذ أسبوع .. منذ تلك العين أقيم على وجهي . ثم قررت أن أجا لهذا البيت الذي كان يخص عني .. لم يكن هناك أحد بالداخل .. بحثت عن شيء يؤكل فلوغلت بهؤلاء الخنازير يقبضون على ويسألونني عنه .. »

سأله (جيفارا) ، وهو يظن السيجار :

« هل تعرف من أنا ؟ »

« يتكلم الرجال عن يدعى (سى عمارة) .. رجل ملتج قوى العينين يتكلم العربية بلكنة ثقيلة ، ويتخذ عمليات ناجحة ضد الأمريكيين .. يقولون إنه ما من أحد يفهم ما يقول لكنه فعل .. »

قال له (جيلارا) :

« هذاك ! »

نظر له الرجل و(عبير) في عدم فهم ، فأردف :

« هذاك غير صالحين للمشى .. تحتاج لذاء خلف .. »

ملحوظة عجيبة تكن (عبير) كانت تفهم تلك الوسواس الخاص بالاعتنية لدى (جيلارا) .. إن الذاء هو القطعة الأهم في ثياب المقاتل ، ولأسباب كهذه نشأ مصنع اعتنية في كوبا قبل الثورة ..

عاد (جيلارا) إلى خيط الكلام الأصلي فسأل الرجل :

« هل ترغب في الانضمام لنا ؟ »

« أرغب في الانتقام .. »

« سوف يُتاح لك الانتقام ، لكن الهدف الأصلي ليس كذلك . بل القضاء على الإمبريالية .. نحن نقتل من أجل أفراد العالم .. من أجل المظلومين .. »

ما زالت (عبير) ترى مذاق هذه الفكرة غريباً .. أى أنه يطالب هذا الرجل الباس بأن يقتل الصينيين من أجل تحرير التبت مثلاً . يتضمن للجيش الجمهورى الإيرلندى كى يحارب إنجلترا .. فى عصرنا الحالى لا يمكن تخيل أن تضحي بحياتك إلا من أجل شيئين : الدين أو القومية .. لا يمكن تخيل وجود شيء مثل (حقوة المظلوسين) .. لكن (جيلارا) كان يخلق هذه الفكرة الرومانسية .. وكأية فكرة رومانسية كانت نهائيتها هناك وسط جبال بوليفيا فى مدرسة ابتدائية خالية . لقد تلك العالم الأخير ، لكن نسفته الجيلية ما زالت تعتق الأفكار ذاتها ..

إن التشى لا ينفذ ، وقد قضى مع الفتى عدة ساعات بثقله فيها حتى أوشك رأسها على الانفجار ..

« إن الفضل ضد أمريكا سوف تصبح له نهضة قارية .. سوف تشعل المواقف فى أكثر من بلد . وستزداد هذه المواقف اضطراباً وعدداً .. سيظهر منافسون وثوار جدد فى مصعدة النشاط الثورى .. وإذا

وجهت هذه الشرائح بقدر كاف من الشكاء الثوري فسوف
تصور قوى يستحيل قهرها .. يجب خلق فينتام ثلثة وثلاثة
ورابعة .. إن الإمبريالية لنظم عظمى هو المرحلة الثانية
للرأسمالية . ولا مفر من تسديد ضربات قوية لها ..
يجب منع الإمبريالية من السيطرة على بلادنا والحصول
على رءوس أموال ومواد أولية .. يجب أن نبحث
الاضطراب في أوصال العدو . وأن نضطره للحرب في
أماكن تصطدم فيها علاقاته بالهيلة التي يعمل فيها .. »

ثم رفع أصبعه محذراً :

« لكن يجب ألا نستهن بالخصم .. إن الجندي
الأمريكي ذو قدرات عالية ووسائله ضخمة .. إلا أنه
يلتفت إلى الحافظ العائدي .. »

كانت عيناها الآن شبه مغفقتين .. لكنها تقاوم حتى
لا يكون موقفها حرجاً لو نامت الآن ..

« يجب أن تنزل بهذا الجيش ضربات معنوية قوية ..
يبد أن هذا يحتاج إلى تضحيات ضخمة لكنها ستكون
أقل قسوة من لو تجنبنا القتال لتدع غرنا يسحب لنا
(أبو فروة) من فوق التار .. »

(أبو فروة) .. الاستثناء .. كانت تأكلها في الماضي
وعلمت أنها تستغنيا على تلك المظلة العتيقة التي تحصل
بالكيروسين .. البطار السلطن العارقي يتصاعد من
الثمرات بيثة اللون ، وذلك المذاق الشبيه بالبطاطا ..
تبدو كبلدق لكن لها طعم البطاطا ..
إنها ..

لا تعرف كيف نامت .. لكنها فعلت ذلك ..

راحلة القجر .. راحلة مختلطة بالمزوت في هذه
المنطقة ..

تصمو من النوم لتجد أن غطاء موضوعاً فوقها ..
وأن (جيفارا) يمسح وجهه في ثوب ماء .. وكان ذلك
الرجل الذي أنقذوه (غسان) ما زال غافلاً على بعد
خطوات .. ثم يكن (جيفارا) رفيقاً لذا وجهه اسبق
النائم ركلة خلفية ..

هب الرجل مذعوراً فقل (نشي) :

« أمس كان المزاح مسموحاً به .. أما اليوم فانت
جندي من جنودى ويجب أن تتلزم .. »

هب الرجل قائلاً وراح يحشر أطراف قميصه المغطوح في سرواله .. طبعاً هو يتعشى أن يدخل الحمام لكنه لا يجرؤ على ذلك .. على الأقل ليس الآن ..

في ذات الوقت وقف ملازم من رجال (جيفارا) العراقيين، وراح يصيح في الرجال الذين لم يصبح بعضهم بعد :

« استيقظوا ! استمروا ربيع ساعة للأغتسال وتناول الإفطار .. سوف نتحرك بعدها إلى الكوفة .. »

الرجال يتأففون ، ثم يلتفتون حول المسكوبت الجاف والشاي المعد منذ أيام ..

ثم يكد أحدهم بينهم يضع فضمت حتى صاح (تشي) :
« سوف تختصر هذه الوجبة .. إنتى لا تشعر براحة كبيرة بين هذه الأطلال .. »

كان يتعشى صدره وقد بدأ ذلك الصغير يتعالى ..

قلت (عير) وهى تليس حذامها :

« هل الجو يثير تريبو لديك ؟ إنها رائحة العازوت تلك .. »

قال (جيفارا) وهو يدك صدره :

« ليست رائحة العازوت فقط .. إن التريبو يتزايد عندى عندما أشعر بالخطر .. نوع من الحاسة السادسة التى لا تخطئ .. تعال يا (قادر) .. »

هرع له أحد رجاله وهو شاب أسمر نحيل له شارب عراقي كث ، فوضع يده على كتفه ولبادل معه حديثاً هامساً هرع على أثره الشاب يختفى لينفذ مهمة ما ..

ثم توجه (تشي) إلى جرينديته ليستحب عليه الكمولات بإهاها التى كتب عليها بالصينية ، وابتلع كمولتين .. سأله وقد تشبعت قنبلاً :

« هل حصلت على كمولات أخرى ؟ »

« إن لدى مخزوناً هائلاً منها .. ما كنت لأحتفظ بعبية واحدة »

« ثقتك سينتهي يوماً ما .. »

« إن لدى وسائلى .. »

كأن الرجال قد تفرغوا ليقضوا حاجاتهم بين الخرائب .. وتعمت لو تستطيع أن تجد مكاناً آمناً .. مشكلة الأنثى وسط رجال أنها مضطرة لتجاهل فسيولوجيتها .. تنسى

أن لها مستقيماً ومثاقاً .. حدث لها شيء مماثل عندما
كانت تستكشف منابع النيل ..

فجأة رأت (جيفارا) يتصلب ..
يرتجف ..

كانه وسيط روحاني يتلقى رسالة من عالم آخر .
أصابها الرعب من منظره غير المعتاد ..
وفجأة صرخ وهو يقبض على ساعدها بأصبع كتاكليت :

« الآن ! »

وقيل أن تفهم شأن قد جرها من ساعدها جرأ ..
جرها إلى جانب الخراب .. جرها إلى حفرة أحدثتها
قنبلة سقطت هناك يوماً ما ..
وصرخ وهو يرتقي فوقها :
« أخطئ رأسك يا بلهاء ! »

هل جن ؟ لم تعرف الإجابة إلا عندما ارتجبت الأرض
بفعل الانفجار الأول ..

٦ - هجوم بعد الفجر ..

دوى الانفجار الثاني رفعت (حبير) رأسها لتلقى
نظرة من تحت إيظ (جيفارا) المبطل بالعرق ..

كانت الطائرة شديدة التشلل كبعد .. طائرة موباء هي
مزيج من الهلوكوبتر والنفاثة تكثرها بلفهم (رامبو) ..
إنها (الأباتشي) كما هو واضح وكما رأتها مراراً منذ
جاءت هنا ..

صاروخين ! لقد أطلقت صاروخين على الموضع الذي
كان فيه .. فلماذا أن هذا الموضع صار فارغاً .. وهي
كانت تلمح هناك بالذات !

لكن الإبرة لم تكن لأنها رأت خيطاً من قطن يخرج
من موضع ما بين الخراب .. خيطاً متلوياً لا يمشي في
مسار مستقيم ، ولكنه يتجه في اتجاه هندسي نحو
الطائرة ..

ودوى الانفجار المروع في الهواء .. لم تسقط
الطائرة وخيط دخان يخرج منها ، بل تحولت إلى شظايا
في لحظة .. كانت ثم لم تعد ..

وعلى قدميها تذاثر الغبار المساقط ..

من بين الخرائب خارج (القدي) يحمل على كتفه مدفعاً يذكر بمدافع البلازما لكنه ليس هو . لم تكن ذات خبرة للتمييز أنواع السلاح . لكنها قدرت أنه من تلك الأسلحة المجهولة على التكيف والتي تقذف الصواريخ الحرارية .. ساجر أو سام ؟ .. موضوعة سوفيتية انتشرت في السبعينات وحفظت لغواتنا نوعاً من التعادل مع التفوق الجوي المزعج للأيرتاليين .. عندما تبليت العسكرية المصرية بهذا (رجل أمام دبابه رجل ضد طائرة) .. لقد كان هذا هو الصاروخ الذي أسقط الطائرة ..

كانت على وجه القنص الخجول ابتسامة تذكرك بالبتسامة الطفل الذي أجز عملاً يتوقع عليه المديح .. وبالتفعل علقه (تشي) في حماري وقال :

- « أنت مقاتل ثورى بارع .. سوف تصرف لك جراحة إضافية اليوم .. أنت تعرف أنك الفاسد البديل في حالة مصر عى .. ألهم لك ذلك ؟ »

ثم التفت لـ (عيبر) قائلاً :

- « شعرت بنحو (الأباتشي) فطليت منه أن يتخذ وضع الزمائية بين الأطفال .. في العادة تحدث الأباتشي ذعراً لا يوصف ونفر .. لكن من الجميل أن تتصور ما يمكن حدوثه لو أن الضحية كانت متاهية ! »

ثم نظر إلى السماء وهتف :

- « معطرة ليها فينقى .. إن خطيتك الشفراء الجميلة التي تنتظرك في (نوهايو) سوف تنتظر طويلاً جداً .. تذكر أنني لم أحمل لك كراوية خاصة .. لكن في النهاية ما الذي أتى بك هنا ؟ »

كان الرجال قد عادوا من حيث كانوا .. واضح أنهم جميعاً أصيبوا باحتباس البول من الذعر . انظر لهم (تشي) يائساً وقال :

- « هيا بنا ! »

كانت القاعدة الأمريكية تالعة بين المرتفعات كأنها تنتظر لحظة الهجوم عليها ..

قاعدة صغيرة هي محطة بلاك شلقة وبوابة صغيرة جوارها كشك حراسة .. في الداخل بعض المصمات البسيطة

التي تتكون من جدران يتم نصبها بسرعة ، وتوجد ثلاث عربات واقفة هنا وهناك ، بينما مجموعة من الجنود بالقمم الداخلية يرتضون جوار العريف وهم ينفون ذلك التشديد المألوف لدى الجيش الأمريكي .. العلم الأمريكي يرفرف كأنه يعتبر أنه في أرضه.

الخلاصة أن المشهد يذكرها بتلك الصور عن معسكر (جوانتنامو) .. وقد تذكر (جيفارا) الشيء ذاته فهم :

« (جوانتنامو) .. لم يكن (جيفارا) يطبق وجود الأمريكيين على هذه البقعة من أرضه ، لكنه لم يستطيع التخلص منهم .. »

كان قد سبق رجائه كما هي العادة يماثلي متر .. ثم انتظر قومهم ، نظر إلى الجنود اراقبين على بطونهم يطلون على المعسكر ، وأصدر الأمر :

« أطلقوا الكوكيتيل مولوتوف ! »

وعلى الفور انطلقت القذائف اليدوية تعلق في الهواء لتبهط فوق المعسكر .. حريق هنا وتفتجار هناك وفوضى عامة .. ومن مكان ما تعلت صفارات الإنذار ..

« تراجعوا ! »

كانت (عبير) تشعر بطيبة أمل حقيقية .. إن فارق القوي مخيف وهي لا تتوقع أن يهاجم (جيفارا) بهذا العدد المحدود معسكراً أمريكياً ، لكن ما جدوى هذه القذائف التي لم تحدث في المعسكر ضرراً تذكر معاً تحته بعض الحجارة ؟

الإزعاج ؟ يصعب القول إن ما حدث كان مزعجاً .. هل هو مجرد التواجد ؟ نوع من أزيز الذبابة ؟

لو كان الرجل يعتقد أنه سيحرق بهذا شامساً كالعراق ويهزم إمبراطورية هي الأقوى في التاريخ بوضع قذائف ، فهو واهم ..

لكن للرجل تراجع مع رجاله إلى منطقة أكثر أمناً .. وإن بقي رجالان في موقع متقدم يطلقان الرصاص بلا تقطاع .. طبعاً هو رصاص لا يحدث أكثر من لدوى ، فلا يمكن له أن يصل إلى هناك ..

فجأة راحت الأرض تترجرج .. صوت الصربور الذي تحفظه جيداً ..

هناك رجل من الدبابات الأمريكية يتقدم نحو المعسكر لحصانته ..

سك الصمت بركة ، وحسن الجميع ألفاسهم وهم يرون الدبابات الحديدية تزحف نحو المكان ..

ثم دوت الانفجارات ..

يبنو أن الدبابات مرت فوق حزام من الأغصان المزروعة ببراعة .. وقد توقف الرجل عن الحركة في اللحظة التي برز فيها رجال التشي من كل صوب ، يطلقون قنابلهم على أبراج الدبابات المتوقفة .. النار والدمار في كل مكان والضوضاء تصم الأذان ..

جند يشون من الدبابات يحاولون الفرار لكن التطلعات تلحق بهم ..

صاحت في جيفارا وهي تنبطح أرضاً :

« هل تريد الاستيلاء على المعسكر ؟ »

أطلق زخة من بندقيته الآتية جعلت أذنيها تصفران وصاح :

« من تحدث عن المعسكر هنا ؟ هذه من ثقتيات حرب العصابات التي ابتكرناها .. تهديد المعسكر ثم

تدمير القوات التي تأتي لك الطريق .. إن رجل الإنقاذ لا يكون عليمًا بطبيعة الأرض .. ويكون خائفًا متوترًا متفكرًا للحماية الطبيعية .. هكذا يمكن مهاجمته في نقطتين أو ثلاث نقاط وتمزيقه .. وسوف يتلقى رجال المعسكر الرسالة كاملة عندما يرون جثث وجرحى زملائهم .. لكن لا نية لي في مهاجمة المعسكر ذاته فهو غير ذي أهمية استراتيجية وخطر .. »

الحق أن التقنية كانت خارقة بالفعل .. إن رجل الدبابات الذي جاء لينقذ وجد نفسه بحاجة إلى الإنقاذ ..

وراحت (عبير) ترقب المشهد الذي اعتكته .. القتل .. القتل .. تلغيم جثث القتلى .. سرقة السلاح ثم الانسحاب بسرعة البرق قبل هجوم الطيران .. ويلطبع كانت وحدات المتوخرة تقوم بمسح آثار المجموعة أثناء الفرار ..

ورأت (عبير) ذلك الرجل الذي أفتتوه (عثمان) يركض حاملًا بندقيته الآتية ، وهو يلطم قميصه المعرق المفتوح على صدره ..

سأله (جيفارا) ملاحظًا :

« هيه .. هل شقيت عليك ؟ »

« ليس بعد .. لكني أحب ما أفعله .. »

ثم توارى مبتعداً ..

قال (جيفارا) وهو ينظر إلى الدبابات المتهتزة :

« ممتاز هذا القنى .. يتعلم بسرعة وقد صار جتدياً بارعاً .. ثم إن حافزه المعنوي قوى .. »

« يبدو أنه يستوعب محاضرات التثقيف التي تصبها في أذنه .. »

« هذا صحيح .. إنه متعطش للمعرفة لا يكل أبداً .. »

لكنها قلت لا تفهم .. ما هي استراتيجية جيفارا ؟

هذه الصليات قد تؤدي وقد توجع ، لكنها لن تطرد الأمريكان .. إنه بحاجة إلى ثورة شعبية تحتاج كل مدن العراق فمن يشعلها ؟ وكيف ؟ إن أحداً لا يبالي بما يقول خاصة مع لغة خطابه العتيقة التي لم يعد أحد يستعملها ..

هذه أسئلة لابد أن تطرحها عليه ..

عندما جلسوا يستريحون بعد عملية الصباح هذه سألته عن رؤيته للمستقبل ، فقال :

« صديقنا فعلة لكنها ليست بالقوى .. لا مقر من استقطاب الأهالي لنا .. لابد من المزيد من الفلاحين .. عندما تتكون آلاف الخلايا الثورية سوف تصور أيام أمريكا معدومة .. »

« لكن هذا يحتاج إلى دهر .. »

« ليس بالضبط .. إن الناس يدعوا يعرفون من نحن ، وسوف ينضمون لنا عندما يدركون أن هذا هو الطريق الذي يربح دائماً .. »

ثم نظر إلى جنوده وقال بصوت عال :

« من السهل التأثير على السكان المحليين ، والضماع بفكرهم معاً لابد من أن نؤمن لهم التوجيه العقائدي السليم .. على الجنود أن يحرصوا على سلوكهم وأن يكونوا في غاية الأدب والكرامة عندما يطلبون من الأهالي الطعام أو الخدمات .. كل شيء يمكن أن يفعله جندي أحمر بغزل شابة حسناء .. هذا خطأ لا يفكر وسوف يجعل الأهالي أعداءك بلا نقاش .. إن تسرق شيئاً

من الفلاحين معناه أنهم صاروا في صف خصمك .. على أن أهم ما يجب أن ينتصر عليه رجل العصابات هو عقدة (الخوف من الحصار) إن وحدة العصابات صفة الكتيب لا تتراجع من هذه المواقف .. علينا أن نتجنب مهاجمة العدو إلا في الليل قدر الإمكان لأن الظلام حليفنا الطبيعي .. يجب أن يكون النصر هدف كل هجوم .. »

كان هناك جندي بمسك بـ (زجاجة) عرقى (صغيرة) بوشك على فتحها ، فنظر له (جيفارا) نظرة لارئة وقال :

- « ألعاب الورق والظهور متنوعة متغايرة في مصر الثوار .. لقد كنت هذا ألف مرة .. في المرة القادمة سأحاربك محاربة عسكرية .. »

نظر له الجندي محاولاً أن يبدو متعدياً ، لكن ما من أحد في التاريخ أقل بمسابقة تبادل نظرات مع (جيفارا) .. هكذا خلص بصره وأخفى الزجاجة ..

ثم انتهى التنشئ من تناول طعامه وكوم منشقة تحت رأسه وأخذ إلى النوم ..

تفرق الرجال من حوله ، ولابد أن كلاً منهم قد قرر اغتنام الفرصة للتفرغ بساعة من النوم ..

أما (عيبر) فجلست تتأمل (جيفارا) التام وقد انسابت خصلات شعره الأسود على وجهه .. ملطبت الجبين يبدو أن الهم صديقه الصدوق حتى في عالم الاحلام ، لكنها شعرت بشكل ما أنه طفل عيبر ، وأنها فكرة على أن ترعاه ..

العالم الأخير . آخر من جرى على أن يطالب بعالم أفضل . وسوف يدفع الثمن .. هي موقعة من هذا .. لا مجال للعالمين في عالم اليوم الفاسي وسط العولمة والإنترنت وثورة الاتصالات ..

راحت تبحث في الحصى جوار قدمها وهي تمسك بكوب الشاي ..

زر هنا ؟ هذا غريب .. زر جعلك الشكل نقي .. هذا غريب ..

ثم نصليت ..

هذا يذكرها بشيء ما ..

٧- ألعاب الأزوار ..

تمشي بين الرمال وهي تدعو الله ألا تكون قد خلقت ..
هناك وراء هذه الكثبان يرقد (ضامن) . الرجل الذي
أنقذه (جيفارا) من التحول إلى لحم مفروم .. يرقد . وقد
وضع منشقة مبتلة على وجهه كي يحمي نفسه من
الشمس ..

إنه العصر والشمس قد زادت شراسة لأنها تعرف
أن يوم العمل موشك على نهايته ..

تتأمل (عبير) جسده الرافد على الرمال .. القميص
مفتوح كشفا عن صدره ..

« تبس قميصا خفيفا بالثياب لحكم خلق الأزوار .
وبالطبع كان القم العتيد .. »

الآن لم يعد هناك عدد كاف من الأزوار يكفى لستر
جسده .. كانت أزوار قميصه كاملة سليمة عندما اتفخوا ..
دفقت انظر فوجدت أن الأزوار تنطبق مع الزر الذي
وجدته جوار التشى ..

جلست جواره ونظرت للسماء .. إنها مقامرة لكن
يجب أن تلعبها ..

في هدوء دمت أزر في جيبه وهو غاف ثم لمست
ساعده في رفق فزاح المنشقة عن رأسه :

« هه ؟ أنت الأرجنتينية ؟ (ماريا) ؟ هل من شيء ؟ »
ظلت واقفة وقالت :

« لماذا تنام بهذا ؟ من الأكثر أمنا أن تكون مع
الرجال .. »

ثم أردفت وهي تنظر للسماء في عصبية :

« لاحظت أنك مولع بالافراد بنفسك .. لا تحب
التجمعات .. ذلك الصباح الذي تعرضنا فيه لهجوم
الأتاشي كنت أنت بعيدا .. يبدو أنك زهرة حائط حقيقية
كما يقول الغربيون .. »

« لا أفهم معنى (زهرة حائط) .. لكن التجربة
التي مررت بها تجعلني لا أطيق البشر .. »

« كم كان عمر أطفالك ؟ »

« ستة وثلاثة أعوام .. »

« قلت ما اسم زوجتك ؟ »

« (نهلة) .. إنها ابنة عمي .. أغلى إليها كانت
كذلك .. »

« رحمها الله .. »

ثم نظرت نه إلى صفي ، وقالت :

« سوف تعيش أياما عصيبة .. لكن صدقتي .. إن
الأمر يستحق .. والان أتركك في تواصل نومك .. »

« شكراً .. »

قلتها ولم ينتظر رحيلها بل غطى رأسه بالعمشقة .
وسرعان ما تعالى غطيته .. أما هي فقد قررت أن الوقت
قد حان للفرار .. لقد امتحنت حظها أكثر من اللازم أما
الآن فقد صار الفرار واجباً ..

هكذا انطلقت ترتض وسط الرمال ..

اجتازت حزام الكثبان لتقف جوار (جيلارا) لتتاهم ..
ووقفت تلهث وتتنظر إلى حيث كانت منذ دقائق ..

عندما تهجم (الأيتشي) لا تراها وهي قادمة ..
فجأة يتفجر كل شيء ثم تنظر إلى السماء لترى طائر
الموت الأسود يتعد ..

وهذا هو ما حدث بالضبط .. لقد نظرت إلى حيث كانت
بعد ما توارى الانفجار . فرأت الرمال تتصاعد لعنان السماء
كأنها بركان أصفر .. بعدها تصاعد الدخان الكثيف .. نظرت
للسماء فرأت الطائرة تهبط في رضا بعد ما أجهزت
مهمتها .. أتد أن طيارها يصدر الكثير من (كيا يبي)
وال (واور) ..

ووثب (جيلارا) مذعوراً بصيح :

« ماذا حدث ؟ »

قلدت نه بأصم :

« لا شيء .. أجهزت تجربة بسيطة ثبت أنها ناجحة ..
عد إلى نومك وسأحدث لك كل شيء فيما بعد .. »

« هذا الفتى صبيح دسه الأمريكان ؟ »

« منذ البداية كنت أستاذ من سبب تناقص الزرر قميصه .. إنها أجهزة لاسلكي .. ينتزع الزرر ثم يضغط على جزء منه يتبوس ليصور فعلا ويصدر إشارات منتظمة .. هذا الجزء ضروري حتى لا يفتك الأمريكيان عميلاً لهم .. يلقى بالزرر حيث توجد أنت وبعد هذا يكون عليه مقدرة المكان مسرعاً .. طائرة الأباتشي تطلق صاروخها بالتضيق على الموضع الذي منه تأتي إشارات الزرر .. هذه هي الدقة الجراحية التي يتكلم عنها العسكريون الأمريكيون .. هذا ما فعله من قبل وفشل وجربه اليوم ففك بنجاح .. »

« هل كان هذا ذئبك الوحيد ؟ »

« في البداية كان لديه ثلاثة أطلاق .. اليوم قال إن لديه اثنين .. قالت زوجته تدعى (زبيدة) ثم تحولت بمعجزة ما إلى (نهلة) .. كانوا يقولون لنا : (على القنوب أن يكون نكوراً) .. أي أن الكذاب يجب أن يتذكر جيداً ما قال حتى لا يتفيه في المحادثة التالية .. »

نزع (جيفارا) القبريه الذي يليه تحت غطاء الرأس العري ، وحك رأسه وقال :

« .. إنهم بارعون حقاً .. رتبوا أن يبدو لي رجلاً بلا حيلة في مأزق خطير .. بهذا ما كنت لأتركه مهما حدث .. ومهمته كانت اختيار المكان والزمان المناسبين .. لقد اضطروا للتضحية ببعض رجالهم كي يبدو الأمر منطقياً .. لكن لهذه القصة معنى واحداً .. »

« .. إنهم يريدون رأسك .. »

« .. هذه من التباهيات .. ما أردت قوله هو إنهم حاولوا الوصول لواحد من رجالى بعد (إيد) فلم يقدروا .. هكذا صارت مهمتهم ضم هؤلاء جاهزين بدلا من تحويل رجالى لعلاء .. إن هذه أخبار طيبة وتعنى أننا قاعدة ثورية مثبته .. »

والجاءت امتدت أصابعه لتصلات شعرها الملتفة على كتفها .. أصابعها ارتباك شديد فتراجعت للوراء .. لكنه قال لها في رفق :

« .. أنت تفتت حباتى بمزيج من شجاعة وذكاء .. قولى لى ما يمكننى عمله لكافك ! »

لم تكن هناك إجابات كثيرة ، لذا قالت له على الفور :

« .. لا تلمسنى .. هذه مذاقنى الوحيدة ! »

٨ - عرض سفر ..

« لا يمكن أن يرسل الزر إشاراته إلا بعد تنشيطه برأس دبوس .. أو أن الخطأ غير وارد .. »

ابتلع الخبير في غيظ .. وتجدد جبينه قليلاً ..

الشياطين اكتشفوا العيلة وسوا زراً في جيب عميله الذي رسمه على (جيفارا) .. لقد رسم الخطة على أن يصدر الأمريكيون أكبر ضجة ممكنة عندما يسمعون عن دنو (جيفارا) ورجاله من تلك البدة .. نجح هذا الجزء تماماً لكن محاولة قصف موضع الأزرار التنشيط فشلت مرتين ..

لقد سخر منه (جيفارا) ..

لو كان أكثر احتراماً لفضل العميل رمزياً بالرماس ، لكنه فضل أن يقتله بطريقة فيها عدالة شعرية وسفوية لا شك فيها .. جزاء من جنس العمل ..

لقد تعثر مزاجه فلم يعد قادراً على التفكير .. لقد انتهى اليوم ..

هكذا نهض وأعلن أنه عائد إلى القنلق .. ربما تعيد بعض ساعات النوم لعقله نشاطه ..

تلقى (مورتون) رجل المخابرات المركزية الخبر بعزيج من البرود والذهول والاشمئزاز .. مع نظارة كهذه لا يمكنك أن ترى تفاعلاته أبداً .. فقط خلجة عابرة على جانب فمه زادت ملامحه قسوة .. ثم سأل من جلب له الخبير :

« متأكدون ؟ »

« نعم يا سيدي .. لقد اتجهت فسيحة من رجائنا إلى المكان بعد القصف .. لم تجد سوى أشلاء لكنها عرفت القنص والأزرار المثبتة له .. لقد كان هذا (خسان) .. »

ضغط على عضلات فكاه .. ثم عاد يسأل :

« لا توجد أشلاء أخرى ؟ »

« ما زلت نتابع الحمض التسوي غير مكتملة لكننا نرجح أن هذه جثة شخص واحد .. »

« أتم تركبوا خطأ ما ؟ ربما أرسل الزر إشارة لاسلكية قبل انقراعه ؟ »

إلى جوار المساق العراقي جلس وقال له بالعربية
أنتي بدأ بجيد عبارات منها :

- « ألقيني يا (كريم) .. »

كان كلل الغربيين يحدّثون (عبد الله) من الأسماء
المعقدة .. على كل حال تنحصر خبرة الغربيين بالأسماء
العربية في ثلاثة أو أربعة أسماء .. (أحمد) .. (قاسم) ..
(كريم) .. الخ .. أما المتعلمون معهم فيكون دائماً حسب
قانون الأرقام (تسليم) بيه العيين المتلقى ذو الهداية
البيضاء والوردة في عروة السكرة .. صورة لأكرمك
يتخذهو (سعيد) كما كنت تراء في كتب التاريخ ..

أطلق (عبد الكريم) مغلفاً المنطقة الخضراء بشق
شوارع (بغداد) ..

كان (مورتون) يفكر في عسق .. لم تعد هذه
الحرب تعنيه في شيء .. فقط هو مهتم بشخص واحد
اسمه (سى صارة) . وهو لن يهدأ حتى يتخلص
منه ، عندها تنتهي حربه الخاصة ..

سمع صوت البوق فرفع رأسه ..

لم تكن هناك حراسة تراقب العرب لأن هذه أسلم طريقة
لتجنب الهجمات .. لقد تعلم الأمريكان أن الحراسة تجنب
المهاجمين ككثبان . وقد تعرض (مورتون) لهجوم من
فيل وكاد يفقد حياته . فلم يتفقه إلا أنه لم يبد مريباً ..
ولو شعر المهاجمون بأنه بهذه الأهمية لأختطفوه فوراً ..

كان (عبد الكريم) يطلق البوق في نفاذ صبره
يتخفى شباب تحيل يلف في الطريق أمام السيارة ..

مد (مورتون) يده في جيبه وأخرج مسدسه تحسباً
لما يحدث ..

رأى الشاب التحيل ينشئ من زجاج السيارة ويدق
زجاجها عدة مرات .. قال (عبد الكريم) :

- « لا تفتح له يا سيدي .. هذا كمين لا شك فيه ..
سأطلق حالاً .. »

لكن شيئاً في مظهر الشاب ونظراته جعلت (مورتون)
يبد يده لينزل الزجاج الكهربى بضعة سنتيمترات ..

الشاب عربي أسمر اللون حزين العينين .. وهو مثقل
بمهمة خطيرة .. هذا واضح تماماً .. الممثلون بمهمة
خطيرة فقط يحملون هاتين العينين ..

قال الشاب وهو يرتجف قلعة واحدة :

« (سى عمارة) ! »

لم يتكلم (مورتون) وظل يرمق الفتى .. فأردف هذا :

« (سى عمارة) .. أنت قريب .. يجب أن ندعنى

أركب قمحتى فى خطر داهم .. »

ضغط (عبد الكريم) على دواسرة الوقود والميالة

فى وضع (المور) .. فتعالى زفيرها وهتف :

« لا تعطل الكلام معى يا سيدى .. »

لكن (مورتون) كان يعمك بالمهندس .. ماذا يمكن

أن يحدث ؟ الشارع خلل ويبدو أننا ..

« ماذا لديك ؟ تكلم الآن .. »

« أنا أستطيع أن أسلمك (سى عمارة) .. لكن

لا تتركنى وأخاف بهذا الشكل .. إن هذا المشهد كليل بقلع

رائسى .. »

« هل تعرف من أنا ؟ »

« أعرف أنك رجل مخبرات مهم .. هذا كاف على

ما أقن .. »

منه (مورتون) بدء بفتح زر التأمين للشاب كسى

يجلس فى المقعد الخلفى .. وقال :

« اركب .. »

وثب الفتى ليستقر فى المقعد الخلفى .. فالطلق (عبد

الكريم) بالسيارة وهو لا يصدق أنه نجى حتى هذه

اللعطة .. أما (مورتون) فاستدار من مكانه فى المقعد

الأمامى إلى الفتى وهو يصوب المهندس إلى رأسه :

« ماذا لديك ؟ »

قال الفتى :

« أنا من رجاله .. أعرف أين سيكون .. يعقبنى

إن انس له والرجال مطدرا فى طعاهم .. قسط شو

وفرتكم لى توهنا جيدا .. »

قال (مورتون) فى برود :

« لاحظ أننى لم أفتح قمى .. ربما كانت كل معلوماتك

خطأ .. أنا مجرد مهندس اتصالات أمريكى .. »

« وأنا مجرد طاه عراقى .. حسن .. شكرا لوفتك ..

فتفترض أن هذه المحاولة لم تكن واسمح لى بفرحيل .. »

ومد يده إلى مقبض الباب . لكن (مورتون) قال في عصبية :

« أنت حيث أنت ولعل كلامك .. »

تنهد الفتى وقال ضاعطاً على كتفيه :

« ما أظنه هو الهجرة لتوليات المتحدة .. تريد ميلفا

من المال أبدأ به حياتي .. هذا كل شيء .. »

« أنا مصعب .. »

« سوف تلقون الجزء الخاص بكم بمجرد أن أنهى

ما وعدت به .. سوف أضع الفتى في حكومتكم ..

والأقربى سأخير الصحافة بكل شيء .. »

« يمكننا أن نذكر .. يمكننا أن نتخلص منك .. أنا

لا أقول فتى سأفعل هذا . لكن حديثنا كله قائم على

لفكراضات .. »

« بهذا نضيق فرصة معتزة للحصول على معلومات .

وفرصة الخلاص من كل هذه المجموعة مرة واحدة .

أنت رجل واسع الخبرة وإن تضيق فرصة كهذه .. »

كان (مورتون) يفكر في عصف عندما سمع الفتى

يقول للسائق :

« والآن اخرج من (بغداد) .. سأخيرك بنقطة

التوقف .. »

« خفف (مورتون) في غيظ :

« لحظة .. من الذي يصدر الأوامر هنا ؟ »

« أنا ! »

قلها الفتى وهو يفتح فيصحه .. عندها رأى (مورتون)

الشيء الذي فهمه على الفور .. حول خصر الفتى

حزمة من أصابع الديناميت تتصل بجهاز كهربى ما .

وفي قبضة الفتى استقر السلك الذي تكفى جذبة له كى

ينفجر كل شيء !

٩ - العين بالعين ..

« الشعب الذي لا يعرف الحق لا يستطيع الانتصار
على عدو شرس متوحش »

لشى جيفارا

صاح (مورتون) وهو يلوح بالمسدس في وجه
الجالس في المقعد الخلفي :

« سوف أقبح رأسك ! من الخطأ أن تهدد خصماً
يلوح بمسدسه »

في برود قبل الرجل :

« والأخطر أن تحاول قتل خصم يمسك بطرف
الفتيل الذي يستطيع تفجيرك ! إن الموتى تكلمن طرفاهم .
ومعنى هذا أن احتمالات هلاكك كبيرة جداً ! »

نظرة لعيني الرجل جعلت (مورتون) يدرك أنه صديق ..
لقد تلاشت نظرة التوتر المدعورة لتحل محلها نظرة باردة
فاسية تعرف ما تريد .. من الواضح أنه سوف يفجر
نفسه بسهولة .. هؤلاء القوم لا يعزحون ..

لقد تصرف بحماسة مرة واحدة لكنها كانت عابثة ..
لقد أنساه مقته لجيفارا الحذر الشلطي الذي تمسك به ..
هنا سمع الرجل العربي يقول :

« « ساكون شاكراً لو أقيمت بهذا المسدس من التافذة .
فهو يجعلني عصبياً .. »

هكذا طوح (مورتون) بالمسدس من الزجاج وهو
يقف عبقاً .. لئلا أن يجد رجال الشرطة هذا المسدس
فيما بعد فيقتلوا آخره ..

استرخى في مقعده وقال لنفسه إنه مر بما هو أسوأ ..
منذ أربعين عاماً يمر بما هو أسوأ .. سوف ينجو من
هذا المأرق ..

لكنني يصدر تعليماته للسائق بالعربية .. بعض العبارات
لا يفهمها (مورتون) لكنه قد أعد نفسه للأسوأ ..

وتعود به الذكرة إلى جنوب لبنان أيام الحرب الأهلية .
عندما اختطف رجال حزب الله عميل مخابرات أمريكية .
بل فقد المخابرات المركزية في لبنان . وقد حاول الرجل
بتدريسه العالي أن يظل صامداً لكنه في النهاية لم يتحمل
التعذيب واعترف بكل شيء ممكن .. وفي النهاية أعدم
بطريقة في الرأس ..

إن هذا المستأجرو لا يبدو خيالياً لهذا الحد ..

إلهم يهرون بمجموعات من رجال الشرطة .. ثم يرى مدرعة أمريكية تقف إلى جنب الطريق وقد وقف جوارها جنود أمريكيون للسيارة في استرخاء .. ربما لو .. من جديد قال القاتل الجالس خلفه :

- « ها .. أفرهم ! لن يحدث هذا أى فارق البتة إلا فى عهد القتل .. أنت كما يبدو با جنرال لا تستطيع فهم الحالة النفسية والروحية التى تجعل المرء يفجر نفسه .. لقد ودعت أطفالى وزوجتى ورثمت شئونى المالية .. أنا رجل ميت يمشى فلا تضغط على أكثر من ذلك .. »

قال (مورتون) :

- « أنا لست جنرالاً .. أنا مهندس اتصالات .. »

- « وأنا طاه .. طاه محشو بالديناميت .. »

ومن جديد راحت السيارة تنهب طريقها خارجة من بغداد إلى الفصولى .. فقط من حين لآخر ترى قطيع الخنازير أو مدرعة أمريكية أو مجموعة من عمال الطريق يصلحون ما أثقله القطار سابق ..

استغرق الأمر نصف ساعة فى طرق وعرة .. وبناء على توجيهات القاتل الجالس فى المقعد الخلفى ..

كان هناك كمين مكون من رجال الشرطة العراقية وثلاثة جنود أمريكيين .. وكان اهتمام اقتضاح الأمر كبيراً .. لكن (مورتون) الذى تلقى تعليماته من المقعد الخلفى هز رأسه للأمريكيين الذين وقفوا فى طرسه استعمارية إلى جانب الطريق .. للتطورات المسود والحوادث والبنائى والتفاهات الشيع فى يد كل منهم ..

- « (هاوى) .. كيف حالكم يا شباب ؟ جو ممتاز للبربول ! »

ثم قدم بطاقته لأحد الجنود .. طبعاً كانت هذه البطاقة مثيرة للعمل شيء لكنه كان بارد الأعصاب بما يقضى كى يقيم الموقف .. سوف يهلك فى جميع الحالات .. إن لماذا يذهب إلى الجحيم مصطحباً معه هؤلاء الشباب ؟ كان كفيلاً بأن يقطعها لو كان هذا يعنى نجاة ..

طبعاً كانت البطاقة تقول إنه مهندس اتصالات .. وقد نظر أحد الجنود إلى المقعد الخلفى حيث القاتل العراقى الذى يضم طرفى قميصه على جسده ، وقد رسم على وجهه أعنى آيات الطوف والامسترخاء .. وقال :

« هل من مشكلة يا زميل ؟ لماذا يجلس هذا هنا ؟ »
 « إنه الطاهي الجديد .. نصحونا بألا نجلس في
 المقعد الخلفي مهما كانت الظروف .. »
 « طاه عراقي ؟ إن خذ الحذر .. هؤلاء القوم
 يضعون الكثير من الكزبي في الطعام .. »
 بالطبع هو يخلط بين عادات العرب والباكستانيين ..
 من جديد وصلت العربة طريقها وسط الطرق التي
 صارت مقفرة ..
 وقبالة وجد (مورتون) لجنة الاستقبال بانتظاره ..
 خمسة رجال ملثمين يقفون يعرض الطريق شاعرين
 أسلحتهم .. وسرعان ما وجد نفسه في سيارة (لاند
 روفر) .. هذه المرأة هناك كيس على رأسه .. فقط
 سمع الرجال يقولون للسائق (عبد الكريم) :
 « عد أترابك واخبرهم أن رئيسك قد اختطف ..
 أنصحك ألا تتعامل مع الأمريكيين شقية . لأنه لو كنا
 فصيلة مقاومة أخرى لأعدمتك .. »
 وانطلقت السيارة تاركة السائق العربي واقفاً في
 دھول ، لا يصدق أنه نجا ..

لم تكن هناك أية شكوك لدى (مورتون) في الشخص
 الذي سيقبله .. فصيلة المقاومة الوحيدة التي ستستجرك
 عن طريق (جيفارا) هي فصيلة (جيفارا) .
 على أنهم في البداية أوقفوه في مكان وسط الصحراء ..
 وأرضوه على التجرد من ثيابه حيث أجروا أنه مسمما
 ذاتها دقيقتاً ثم جعلوه ينس ثيابا جديدة لخصم .. كانوا
 على يقين من أنه يحمل جهاز مضادة بشكل مسا ..
 وهكذا قرروا أن بلغوا هذا الاحتمال تماما ..

إنهم يعرفون من أنا .. ويعرفون أنني أريد (جيفارا)
 أكثر من أي شخص آخر .. لكن كيف ؟

يمشي معصوب العينين خافي القدمين على الرمال
 المسفلنة ، يركب السيارة من جديد ..

رحلة استغرقت ساعة لم عدة ساعات ؟ وفي النهاية
 أمروه بأن يتوجه .. يمشي على أرض ساقطة .. مدخل
 بناية .. رطوبة .. رائحة سيجار .. ثم يد تزع الكيس
 عن رأسه ..

وعلى الفور رأى (جيفارا) أمامه ..

كان المكان أقرب إلى قاعة في مدرسة .. هناك خرط على الجدران ولوح كتابة .. (جيفارا) يجلس على مكتب المعلم والسيجار في يده يمضغه في تلكذ .. وجواره كانت (مير) ترمق الضيف الجديد في حيرة ..

قال القنسى بالإنجليزية في تهذيب لا سخرية فيه :

- « لا تؤاخذنى .. لقد تعلمنا طريقة الكيس على الرأس هذه منكم .. »

قال (مورتون) الذى احتفظ بريشة جاشه :

- « ونحن تعلمناه من الجيش الجمهورى الأيرلندى IRA .. إن تأثيره النفسى مخيف .. يشعر بالعجز التام .. »

قال (جيفارا) وهو يطلق سحابة دخان كثيفة :

- « أنت صيد ثمين .. نحن نعرف من أنت ولماذا جئت .. »

- « هل لي أن أعرف كيف ؟ »

- « إن رجلكم الذى كلفه بتسميم الكبشولات قد حكي لى الكثير هناك .. وقد راينا القاعدة عدة أيام بوسائنا الخاصة حتى رأيناك .. عرفناك من الأوصاف وعرفنا سيارتك وفتدك .. ما يقى كان سهلا .. فقط راقت على أن حسابك للقبض على سوف يجعلك تنسى واجب الحذر . وقد كان .. إن المخاطر لعبة لاثنين .. »

ثم أشار لأحد رجاله فجلب مقعداً وقاماً من عصير البرتقال لرجل .. وأرفف :

- « ليست لدينا مشروبات روحية لأنها ممنوعة .. »

قال (مورتون) ينظر له فى ثبات .. ثم قال كالحالم :

- « انتقينا من قبل فى (بغداد) لكذلك لم تلق بالآ لى .. إلا لى لم أكن وجهك .. »

قال (جيفارا) :

- « بقضية لى يشبه الأمريكيون .. وأقصى العسكريين منهم .. نفس الوجه الجاف الصارم وقصة الشعر والقدرة على ذبح الأطفال بلا تردد .. هل تعرف أنك تمثل كل ما نكرهه فى هذا العالم ؟ الإمبريالية الأمريكية صار لها رأس وقدمان وتجلس على مائدتى الآن .. »

لم يعلق (مورتون) وقال يرمق القنسى فى انبهار :

- « مدهل .. علمنى أهود بالقرن إلى الستينات .. نظرة الحالم الذى لا يعنى شيئا عن العالم الحقيقى . قبلة العسكرية والحذاء (الميرى) .. كنت أنت رمزاً لكل ما نكرهه كأمريكيين .. »

« نحن متفاهمان إذن .. »

شرب (مورنون) ما في القلبي مرة واحدة ثم قال :

« لكن الوضع مختلف .. لا يوجد اتحاد سوفيتي

ولا صين .. الماركسية قد انتهت من العالم .. يجب أن

تعرف أنك وحيد تماما وأن فرصتك في النجاح صفر ..

ما الذي تحاول إثباته ؟ »

قال القلبي :

« إن أمثلياً في القصر هي تفسير الولايات المتحدة

الأمريكية .. إكراهها على أن تقوم بنضال صعب على أرض

معادية لها .. معنى هذا أن أمثلياً حرباً طويلة مريرة .. أتم

خسرتم الحرب في فيتلاند بكل ما لديكم من جيوش ..

تأسرون كل يوم في العراق .. لقد أصيبت كهربائكم

بضربة قاصمة وعليكم أن تعرفوا أنكم لا تستطيعون

إرغام قلبي على أن يصير كما تريدون له .. »

« هذا ما تعتقد .. »

قال (جيفارا) بحث في بعض الأوراق أمامه ثم قال :

« طبعاً أنت تقدر موقفي .. لن أترك صيداً ثميناً

ملك من دون معرفة كل شيء » يعرفه .. »

« هل مستعظمي ؟ أنا مدرب جيداً لتجسس هذه

الأمور .. لاحظ أنني رجل مغامرات منذ عام ١٩٧٥ ..

لو كنت أكثر عمقاً في تفكيرك لأفرغت الرصاص في

رأسي هنا والآن »

« لدينا استاذ جيد للتدريب تختلف عن انتزاع

الانتظار والحرق .. أسف يا رفيق .. لكني أحاول أن

أؤدي عملي .. »

« وأما أحاول أن أمنعك من ذلك .. »

قلت (نشي) إلى أحد رجاله وأصدر أوامره :

« خذوه وقيدوه في القبو .. سيكون هناك رجل

بجوار طيلة الوقت مهمته أن يمنع من النوم .. يركله ..

يلسعه .. يسكب الماء على رأسه .. شتمهم ألا ينال لحظة

واحدة .. بعد ثلاثة أيام سيقتلنا عن تدريب المخابرات

الرابع الذي للقاء .. »

١٠- قصوة ..

بالنسبة لـ (مورتون) لو كان هذا اسمه صارت الساعات التالية لحظة طويلة ألحمة .. كان قد سمع عن هذا النوع من الطاب . ويعرف أن التزيين هم مبتكروه . لكنه لم يتصور أنه بهذه البشاعة ولا القسوة .. وبدا أنه أن اقتراح عينيه للعب تسمى الطويلة بهما قد يكون أقرب للإنسانية ..

هو الآن جلس إلى مائدة في ذلك القبو . وقد ربطت يده إلى خلف ظهره مع تثبيت قسيه .. من حين لآخر يمسون شيئاً يؤكل بين شفتيه أو يصبون الماء شيئاً بينهما .. ليس الموت جوعاً أو عطشاً ضمن برنامج اليوم إذن ..

إن جفنيه يتقلان .. يوشك على أن يغمضهما فيتلقي ضربة في كتفه .. يفتحهما في دعر .. ثم تغلبه الروى فيقلان من جديد . هنا تأتي صقعة من مكان ما .. ضوء ساطع يخترق جفنيه فلا يستطيع غلظهما لو حاول ..

تدريجياً تكون نوعاً من الانحناس القسري كساق وصفه الفولجية (بالوف) .. كلما غلبه التعب صبحا مذهوراً لأنه يربط بين التعب والصقعة ..

العالم تحول إلى ضوء ساطع وإلى أنسباح كثرافس هنا وهناك .. ولم يدرك أنه يفقد عقله إلا عندما رأى نفسه يتقدم نحوه وهو يضحك وقد نس يديه في جيبيه .. لحظة لغاء النفس الشهيرة في قصص (ستوبيسكي) .. لم يكن متنبهاً أو يؤمن بلروح . لكنه شعر بأن هذا نلير وفاة ..

أخيراً وصل إلى حلبة من فقدان التمييز التام لما يدور حوله . يسمع كلاماً فلا يفهم .. يرى أشياء فلا يفهم ما هي .. لا يعرف إن كان ميتاً أم حياً .

في الحقيقة كان يومان قد مضيا على (مورتون) وهو في هذا الطاب .. فقط كان الرجال يتأهبون عليه .. من أن لآخر يأتي رجل عصابات نضر منتعش كالزهرة ويقلب جواره على حين يتصرف زميله ليلازم ..

ولكن (نفس) يدخل المكان من حين لآخر في يرى ما وصلت إليه الأمور . وتطوع مرة بأن يسمع (مورتون) بسيجاره المشتمل ليوقفه .. طبعاً نفس (مورتون) هذا على الفور ..

قلت (غير) وهي ترتجف :

« هذه قسوة ، يخل إلى أن تنجح كل نثر رحمة .. »

قال (تنشى) وهو يرمى المشهد :

« عندما تطيرين له تزين رجلا بتعب ، لا تطير له
فأرى أطفال غروشيما المحترفين ، والهنود الصغار الذين
كفى بهم في تشوج عرفة ، وأطفال أمريكا ثلاثينية الذين
يسكنون في الشوارع وتعلمهم حكومة بيرزيل ككتاب .
وأرى كل ضحايا فلسطين ، وكل قتلى العراق ، صديقي ..
لا أعتقد أننا نساء على الإطلاق بل هو نوع من التلذذ .. »
ثم اتحس على الرجل الجالس الذي لم تعد عيناه
تريان تقريباً برغم أنها مفتوحة الآن . وقال :

« لا أريد أن تفقد عطفك لأن هذا سيجعل اعتراضاتك
بلا قيمة .. هل أنت مستعد للتكلم ؟ »

من بين شفطيه همس الرجل :

« أذهب للجحيم .. »

« هذه ليست إجابة .. »

« ماذا تريد أن تعرف ؟ »

ابتسم (جيفرا) وقال في رفق :

« كل شيء ، من أنت فعلاً ، ريتيك . العنيمات
التي ضمت بها ، غططتم .. اتصالكم .. ماذا تعرفون
عن قوى المقاومة العراقية الأخرى ، ماذا تشعرون
عنده في المستقبل ؟ هل هناك ترتيبات لتسحب ؟ ما
نورك في موت (جيفرا) عام ١٩٦٧ ؟ »

صمت (مورتون) قليلاً ، ثم قال في تعب :

« هل سوف تسمحون لي بالنوم بعدها ؟ »

أشعل التنشى سيجاره الشهير وقال بلا سخرية :

« سوف ننام كثيراً جداً .. ربما للأبد .. »

لكن (مورتون) كان ملهماً إلى حد أنه لم يبق بالتهديد ..
فليكن ما يكون .. اتهم أن يريح رأسه في وضع الخس
ويقضم عينيه ويسمح لأجنحة الحلم أن تعمله إلى
أرض (أذا أذا) كما يقول الأمريكيون ..

لقد نلوا منك بحق يا (جيمس) .. لقد عرفوا كيف
يهزمون روحك ..

وهكذا مضى يومان وهو يثرثر بلا انقطاع .. صحيح
أنهم سمحوا له ببعض النوم ، لكنه ظل يتكلم حتى
لا يعودوا يهاب ..

التعريف أنهم جعلوه بعد اعترافه عدة مرات بحثاً عن تناقض .. وكان رجل عربي بدون كل حرف يقول ..

في النهاية سأله (جيفارا) :

« هل من شيء تضيقه ؟ »

« لا .. هذا كل شيء .. »

لم يدر إلا وفوهة المدد تنصق بصداحه . وسمع القش يقول :

« بناء على حكم المحكمة الثورية فبنتي سوف تفذ حكم الإعدام فيك لأنك عميل الإمبريالية .. ولأنك قضيت حياتك تحارب قوى التحرر .. »

ثم بيدل (مورتون) بحياتيات الحكم .. المهم أن ينتهي وينام ..

فقط رفع رأسه . وقال في شيء من السخرية :

« أنت دعابة لا أكثر وسوف تلحق بي سريعاً يا صديقي .. »

« ربما .. لكك لن ترى هذا .. »

وانطلقت الرصاصة ..

كثت (عبير) تبتى وترتجف .. بينما قال (جيفارا) للرجال :

« تخلصوا من البطة .. يجب أن يجدوها وأن تكون عبدة .. ولرجو أن ينظف أهدكم هذا الدم .. »

ثم نظر إلى (عبير) البليكة وقال :

« (ماريا) .. إن بعض القسوة يكون أقل على الرحمة من القسوة الأبله .. القلاب يجب أن تقل على الفور .. »

لكنها لم تستطع أن تبهذ المشهد عن مخيلتها ..

قاس هو (جيفارا) .. قاس وهازم وصارم .. هكذا قال عنه الجميع حتى إن رفيق صوره (كاسترو) كان يدهش من عقله أحياناً ..

لكنها سمعت صوت الصغير المتصاعد من رنتيه .. رأت تلك الرجفة في بده فأفركت أنه ليس متعجز الشاعر إلى هذا الحد .. هو لا يستمتع بما يقوم به لكنه يشعر بأنه يجب أن يفعل ..

١١- لا تريدك هنا ..

« انتصار أي بلد على الإمبريالية هو انتصار للجميع . وهزيمة أية أمة أمامها هزيمة للجميع ... »

تشي جيفارا

لم يخش الأمريكيون على العثور على جثة رجل المخابرات الأمريكية المهم إلى جوار الطريق . ولقد اختلفت صدغه رصاصة .. هذه أخبار لا تداع ولا تنقل للوطن .. فقط ازدادت الحملات شراسة وقد عرفوا بالطبع من السابق (عهد الكريم) الذي عاد مذعوراً الجهة التي اختلفت رجلهم .. ما دام الفخ كان باسم (سي عمارة) فلا يصعب استنتاج الجهة المدبرة ..

كان تشي يقيم مع رجاله العشرة في بيت فلاح عراقي يدعى (جاسم) .. كف عن الحركة لبضعة أيام على سبيل العطر . لكن ابن الفلاح كان مثقفاً قرأ عن بطولات (سي عمارة) وذكره جداً (جيفارا) الحلم الثوري القديم .. لهذا عرض على المجموعة أن تقيم في بيت أبيه ..

كانت هناك حظيرة مليئة بالقش . ولم تكن هناك مواش في الدار .. لذا أمكن للتوار أن يقيموا فيها بضعة أيام .. وبالطبع كان هذا سجنًا اختياريًا تمامًا لأن أحدهم لم يكن يفرج .. الطعام كان يأتيهم حيث هم ومعه الصحف .. لكن لا خروج .. إن عملاء الأمريكيين يبدون مثلًا تمامًا .. ولن تعرف أبدًا متى تلع حينًا واحد منهم عليك ..

قال (جيفارا) لـ (جبر) :

« ليس الموضوع موضوع صالة فحسب .. إن المستعمر يكون قاسيًا جدًا على الأهالي ويعرف كيف يشر رجيم .. وهم مثليون مسلمون . لذا يسهل الضغط عليهم .. ليس كل من يفضح أمرك خائن وإن .. ربما كان مذعوراً .. ربما يخشى على أمرته .. »

ثم أردف بعد تفكير :

« هؤلاء يجب أن تعاملهم بأكثر قسراً من العراقيين .. يجب أن يكون هناك فرق واضح بين معاملة المستعمرين والمثولة التي يجب أن تكون وحشية . وبين معاملة الأهالي التي يجب أن تتم بالتطوع والتهذيب .. »

كان يتكلم طيلة الوقت وبلا انقطاع ..

صار رأسها على وشك الانفجار ، وهو لا يكتف عن إقامة التسويات في الحظيرة وتكثيف الثور عن الاستمرار والماركسية والإمبريقية والخصبة التاريخية .. يقول هذا كله وهو يذعن السيجار في نهم .. أيام وأيام .. ثيل وثيل ..

هذا الرجل لا يتعب ..

على أنها ناست ذات قبلة وصحت من نومها على رائحة الحريق ..

رشت بعينها لتري الرجال يركضون هنا وهناك .. الزهرة البرتقالية تلهم المخزن والدخان يجعل الرؤية شبه مستحيلة .. ثمة يد قوية أطبقت على معصمها وجرتها وسط الدخان إلى الخارج حيث القيل القلند .. إنها لا تعلم إن بل هو حريق فعلا ..

هناك ترى الرجال يصرخون ويحملون دلاء الماء .. النار تتعالى ..

أين التلثي ؟ هو ذا يقف وسط الرجال ويصدر نهم التعليمات .. يريد أن يكونوا صفًا بأجسادهم كي يتقلل

الدلو من يد ليد .. لا داعي لإنشاعة الوقت في الترضخ يمينًا ويساراً ..

هكذا ..

فقط سمعت أحد الرجال يقول لصاحبه :

« سيجار (سى عصارة) .. أذرتة من قبل أننا في حظيرة مليئة بالقتل ، لكنه لا يستطيع التوقف .. »

بيضاء بدأت النار تعلن عن هزيمتها .. لكنها أعلنت ذلك مع كثير من الدخان الذي تعلل لعنان السماء .. وحملت (عبر) كله على أنهم تبهوا .. كان من الممكن أن تحترق أثناء نومها فلا تقيم إلا في اللحظة الأخيرة ..

أخيراً وقف الرجال مبتلين بالعرق والماء .. والدخان يتصاعد من شعورهم وشواربهم .. كانوا يلهثون ..

ومن وسط الصخوف ظهر ذلك الفلاح العراقي العجوز .. إنه (جلسم) .. شارب أبيض كث وخطرة على رأسه وسترة فوق الجلباب .. إنه غاضب بحق ..

يتقدم حتى يقف أمام (جيفارا) ثم يقول في حزم :

« فقلت لكم مراراً أن تتوخوا العثر أثناء التفتيش .. »

لم يتكلم (جيفرا) . اكتفى بأن يعضض سيجاره الذي أطلقته النيران ..

« لقد كففت الحظيرة وكذا فنتفهم نحن أيضاً .. فلت لهذا الأحمق (على) إنكم ستجلبون لنا المصائب . لكنه كان مصرّاً .. الآن يفتشى أن أقول لك بحزم إن عليك أن ترحل .. لا أدري إن كان يوسعي أن أقول هذا لرجل مدجج بالسلاح . لكنني اقتربت من القبر جداً ولم يعد يلقي أن تقتصر في الخطوات الباقية .. »

قال انتشى في تهذيب :

« هذا من حقه .. لكن هل تريد أن ترحل فعلاً ؟ »

« أنا لا أمزح .. سئى لا تسمح بذلك يا ولدى .. يجب أن تعرف أننا لا نرحب بك هنا وإنك تبدو لي أقرب إلى مهرج .. »

نظر (جيفرا) لرفقه نظرة ذات معنى .. كان أكثرهم قد استنفذ سلاحه ومتاعه فن يسترقق الأمر وقتاً طويلاً في الترحيل .. لكن القلاح عاد يقول :

« قلبي لا تتعاون معك لأنها تحبك .. إنها تفتشك . أنت غريب هنا وعن عادتنا .. ونحن لا نريد طريفاً من يأتي نحرر لنا أرضنا .. »

فلو كان (جيفرا) ذا ثقافة عربية لقال : « رب اعظم له فقه لا يحرم .. لكن نظراته فلت شينا كهذا على كل حال .

فقط نظر إلى رجاله وقال :

« فلتجد مكاناً آخر يا رجال .. »

وهكذا ابتعد الجمع المنهك عن الحظيرة التي تحولت إلى كتلة من اللحم.

صف من الأسياح يمشي في الظلام إلى لا مثال

كانت السيارة المدرعة الأمريكية تنطلق على تلك الطريق قرب (القوسية) جنوبي (بغداد) . ووسط السجل التحليل المتشابكة وقف (جيفرا) مع رجاله و (عيسر) ينظرون اللحظة الحاسمة ..

إنه لا يستعمل الأنغام لكنه يستعمل طريقة التفتيش المتصلة بعبوة ناسفة .. وكان التوقيت مهما جداً .

قال (جيفارا) في كبرياء :

« أعدمناه لكن لم ننهجه .. »

قال الرجل :

« نعم .. أنت تحدث الكثير من البلبلة .. الناس

تسمع عن العملية فلا تعرف إن كان المهاجمون قد قاموا بها أم أنت .. »

« المحصلة واحدة .. إن الأمريكيين يموتون .. »

قال الرجل بينما رفيقاه يلتقطان صوراً للسيارة المحترقة :

« .. دعنا لا نطل الوقوف هنا فالمسوف تصل (البلاك هوك) حالا .. فلنكون بين الأشجار .. »

هكذا تسارعت الجميع إلى ما وراء هزام التخليل .. وبالفعل نعالى حدير العروحيات خلال دقائق ..

قال الرجل المثلث :

« .. دعني أقل لك شيئا ولتذكره جيدا .. أنت تقابل بمساليب مختلفة غريبة .. كلامك غريب وأفكارك أغرب .. »

لقد ولى هذا العهد الذي تتكلم عنه .. المتأصل ليوم صار اسمه (مجاهد) .. أنت أجنبي تختلف عنا في الجنسية والدين واللغة وكل شيء .. لا مكان لك هنا .. »

قال (جيفارا) وقد بدأ صغير صدره يتعالى :

« .. كنت أفكر في نوع من التحلف أو تسليق الجهود .. لقد فشلت في الاتصال بكم منذ جئت هنا .. »

« .. لن يكون هناك تسليق جهود .. لا أحد سوف يتعاون معك .. أوصحك بأن ترحل .. »

ثم لوح بينديته الألية في الهواء وأردف :

« .. في اللقاء القادم سوف تكف عن اعتبارك رفيق كطاح ونعتبرك خصما .. سوف نقااتك وأنا لا أقول هذا على سبيل التخويف لكنها الحقيقة .. لن نترك أجنبيا يخوض لنا حربنا .. »

« .. أنت أصب بينكم أجانب .. »

« .. ليس بيننا أجانب .. هناك عرب غير عراقيين .. لكننا لا نرحب بقدوم أرجنتينيين ليعملوا كيف ندافع عن أنفسنا .. »

ثم صاح في الرجال :

« هيا بنا ! »

والتفت إلى (جيفارا) قاتلاً :

« في المرة القادمة سيكون الحوار بطلقات الرصاص ! »

وسرعان ما توزي الرجال وسط الأشجار الكثيفة ..

نام الرجال ونامت (عبر) ، لكن (جيفارا) ظل يرمق النار لفترة طويلة والسيجار بين شفتيه ..

صحت في الثانية صباحاً شاعرة بالظلم ، فرائه جالساً حيث هو يرمق النار مفكراً ..

على ركبتيها دلت منه ووضعت يدها على كتفه فلم يلتفت ..

« ما بك ؟ »

قال دون أن ينظر لها :

« ما الذي أفعله هنا ؟ »

« تحارب الأمريكان طبقاً .. »

« لا أحد يريدني ، لقد تغير الزمن كثيراً جداً .. »

كانت تسترجع محادثتها السابقة معه منذ شهر ..
وذكرته بها :

« اسمعني .. هذه الأيديولوجية انتهت .. لقد تلاشى الاتحاد السوفييتي ، والصين لا تريد أن تتورط في مشاكل لأنها منهكة بنهضتها الاقتصادية .. لم تعد هناك سور دولة واحدة قوية هي الولايات المتحدة .. كان بوسع حركات التحرر في الماضي أن تعتمد على الاتحاد السوفييتي والصين .. كانوا يقاتلون في فيتنام والشرق الأوسط بالسلاح السوفييتي .. الأيديولوجية التي كنت تحارب من منطلقها قد تلاشت .. اليوم لم تعد هناك مرجعية للقتال في العراق إلا من منظور إسلامي ويبدو أن هذه هي المقاومة الوحيدة الفعالة حالياً .. هناك قوميون عرب لكن عملياتهم لا قيمة لها تقريباً .. دخل من أنك أجنبي وأن يثق بك أحد .. لا مكان لك هنا وأن يصفى أحد لأحلامك عن اتحاد الشعوب المظحونة .. من المستحيل اليوم أن تقع شيئاً أمالياً بالقتال في انتهت

تحريره من الصين .. أنت رومانسى .. وكل رومانسى
أنت ترفض الزمن الحالى .. ترفض الواقع .. والواقع
يقول إنه لا مكان لك .. »

ثم أردت :

« لا أقول هذا لأخبرك بم أنا عبقريّة .. لا أقوله على
سبيل التشكي من منطق (كم قل لك ؟) .. فقط أنكرتك
بأنك كنت تعرف هذا كله من قبل لماذا استجد ؟ »

قل في ضيق :

« منظر ذلك الفلاح العراى العجوز وهو ينظر لى
بكرامية .. بالفعل كان يفتنى .. لقد جئت هنا لأحرره
فإذا بي أزيد حياته صعوبة .. إن سيناريو ما واجهه
(جيفارا) فى بونيفيا يتكرر .. »

« فهم تفكر ؟ »

نظر لها وعيناه تلعبان فى اللهب . وقال :

« سوف أخبرك قريباً ! »

١٢ - الرحيل ..

« لنا استفتاء كثيرون .. لكن ليس بين الحكومات ..
إن استفتاء فى صفوف الشعوب .. »

تلى جيفارا

فى الصباح الباكر يقف الرجال وجوههم ويتناولون
المسكوب الجاف ..

إنهم يتخفون منهم فى بعض الخراب كالعادة .. وهى
عملية معقدة تعلموها من (جيفارا) أو (سى عمارة) حيث
يجب إلقاء مكان يصعب حصاره .. لابد من مطر جفاف .

كانت (عير) تفصل وجهها بدورها عندما فطنت
إلى أنها لا ترى (جيفارا) ..

لقد تركته فى الثانية صباحاً جالساً أمام النار يشخ ..
لأنها غابت فى نوم عسيق فلم تدر ما حدث بعدها ..

كان كل مرضى الربو مولعاً بالهواء الطلق .. لا يطيق
التجديف تخفق رئتيه . لذا خرجت لتلقى نظرة فى الخارج ..
لا أثر له ..

عادت إلى قنصل وسألت (فادي) عما إذا كان رآه .
فقال بلهجة غامضة :

« لا .. »

« ألا تبحثون على الأقل ؟ »

لكنه ظل صامتا .. كأنه يفكر في الخطوة التالية
ولا يجد الشجاعة كي ينفذها ..

فجاء تقدم (فادي) ليوقف وسط الرجال وقتل بصوت
عال :

« بما أن القتيق قد رحل ، فبئس الآن أملك صلاحيتك
كاملة .. وأنا مسئول عن هذه القضية الثورية ! »

الآن بدوا على عزم بما يحدث فيما عداها .. ما معنى
هذا ؟ هل رحل القتيق ؟ أين ؟ متى ؟ لقد كان جالسا
يتكلم منذ ساعات لا أكثر ..

ثم بدأت تتذكر شيئا ..

« أقيم تظاهرة ؟ »

« سوف أخبرك قريباً ! »

ما الذي خطر له وهو يتأمل الفار ؟ إنه حصان جامع
والفعله قد تسبق ألفاره أحياناً ..

قال لها (فادي) وهو يفتش في جيبه عن شيء ما :

« لم يصخر لي القتيق تعليمات إلا أن أواصل ما بدأه ،
وبالتطبع أعطاني كل ما لديه من معلومات التزعمها من
رجل المخابرات المركزية .. بخصوصك طلب أن نواصلك
إلى أقرب مكان يمكن أن نجدك فيه الأمريكيون .. هم
أن يؤذوك لكن سيقومون بترحيلك ! »

« عم تتكلم ؟ »

كان قد وجد ما يبحث عنه .. رسالة مطوية في
مغلف .. لولها إياها وقال :

« هذه رسالة تركها لك .. إنها بالإسبانية قدم أفهم
حرفاً .. أرجو أن تقرأها وأن تخبرينا بما يخصنا منها .. »

تلوقت الورقة في تردد وجلست على مجموعة من
قوالب القرميد وراحت تقرأ :

« ماري :

« في هذه اللحظة لأكر أشياء كثيرة . أفكر لقائنا
وحين قُررت الالتهمك في التآهب والاستعداد .. لقد
سفلنا ذات يوم عن الشخص الذي ينبغي إبلاغه في
حالة وفقتنا . وقد اعترتنا الدهشة لأنه لم يخطر ببالنا
شيء كهذا من قبل .. ثم أدركنا أن هذا وارد وأن
الإيمان في حالة الثورة إما أن ينتصر أو يموت .. وقد
سقط كثير من رفاقنا في طريق النصر .. »

« ثم تكن (عبير) تدرك أن نص هذا الخطاب
محفوظ في ذهنها . لأنه الخطاب الذي كتبه (جيفارا)
الأصلي لوداع رفيق كطاحه (كاسترو) .. لقد اكتسب
(جيفارا) أشياء كثيرة من جده القبلي ومن بين هذه
الأشياء الأسلوب .. هو ذا يستعمل لا شعورياً ذات
الأسلوب الخاص به ..

« الآن استأنفك يا (ماريا) في الرحيل واستأذن
الرفاق .. وأقول لكم جسيماً : وداعاً ..

« إنني أتخلي رسمياً عن مهامى في قيادة الطليعة
الثورية .. حينما أتعرض الأيام الماضية أعتقد أنني صلت
بلمحة وبإخلاص في سبيل دعم الثورة . لكنى أشعر بأن

دورى الشئ في العراق وإنه لم يعد لي مكان هنا . إن
بالأمر أخرى كثيرة تحتاج إلى جهودى المتواضعة وأنا
أستطيع القيام بذات الدور في مكان آخر .

« إننى راحل وأنا أشعر بمزيج من الحسرة والالتيم .
وأنا أتذكر ورثتى هذا اعظم إمتلى في الشئيد والبلد
وأترك أعز أصحابى الأمر الذي يعزق نفسي نفسي
سأحمل معى هذا الإيمان الثورى والرغبة في التفاح
ضد الامبريالية حينما وجدت ..

« فبالى النصر دائماً أو الموت ..

« أعانك بكل ما أمك من حرارة ثورية ..

انتهت الرسالة فطوئها (عبير) وشعرت بأنها
لا تنتمك لنفسها .

لقد بكى (كاسترو) عندما قرأ رسالة مملكة وهى
ليست أفضل منه حالا ..

هكذا تهافت بالبداء . ثم راح التمتع بسيل من عينيها
فأنفها ..

دنا منها (فادى) ووضع يده على كتفها فهمست -

- « إلى أين ؟ »

- « إلى أين أي شيء ؟ »

- « إلى أين رجل ؟ »

- « لم يقل ولم يجسر أحد على سؤاله . لكننا سنلتق

وصيته واستمر في الكلام .. »

- « أين نلتحق به ؟ »

- « من الصعب أن نتكلم من ذلك .. ربما كان في

بيت مهجور أو فندق . ربما كان في الطائفة أو عربة

تجتاز الحدود .. ذلك من أنه لا يريد ذلك .. »

لكنها ولقت تفكر وهي تجفف عينيها من حين لآخر ..

- « إن بلادنا أخرى كثيرة تحتاج إلى جهود متواضعة

وأنا أستطيع القيام بذات الدور في مكان آخر .. »

إنها ليست معزولة أو متخلفة عتياً ..

لا يصعب عليها استنتاج الباقي ..

١٢- إنه هنا ..

تأمل ضابط المطار جواز سفرها :

- « (ماريا جونزاليس) .. مراسلة شبكة CIDN .. »

لرجنتينية .. هل جئت هنا في مهمة تتعلق بالعمل ؟ »

أبسمت وقالت في شيء من العصبية :

- « السباحة .. لا أكثر ولا أقل .. قبل في إن اليهود

فكروا في بلادنا كوطن قومي أولاً .. »

قال ضابطاً :

- « سوف نرى أين صنعنا جنتنا هنا .. »

كانت عصبيتها تزداد من دقيقة لأخرى . خاصة أنها

المرأة الأولى التي تحملها (فلتلزيا) إلى هنا . إلى مطار

(بن جوريون) شخصياً .. وكانت الكتابة العبرية في كل

مكان تشير أعصابها . لقد تعودت عبر سنتين من القراهية

أن تراها كلها أقلام غشقيات .. مجرد شيء يشير انقلاز

والقشعريرة .

لا تخافى يا (عير) .. أنت لا تعتق للعرب بصلة ..
أنت (جنتية) .. يجب أن تتكلمى هذا .. فتلقى جانب
الاستمزاز هذا من مشاعرك ..

لهم أن يكون (سلمان) بالظنوك .. لن نستطيع
أن نتحركى خطوة واحدة من دوله ..

انطلقت السيارة متجهة إلى (رام الله) ..

لم تتبادل كلمات كثيرة مع (سلمان) سوى عبارات
التمنية .. ومنذ ذلك الحين قلت صامتة .. كان يتحاشى
الاجبة عن أية فستة .. وقررت هي أن تتحاشى السؤال ..

هناك عدة نقاط لتفتيش بالطبع .. وكان الجنود
الاسرائيليون ينظرون لها فى شك وفضول وهم يفقدون
الأوراق .. لكنهم لم يملأوا اسمحون للسيارة
بالمرور ..

فلسطين أخيراً .. لم تكن قد زارتها من قبل ولم تتقبل
شفقتهم .. فيما عدا ما كونه خيالها من نشرات الأخبار ..
كانت تعرف أن فلسطيناً لا تغير عن حقائق الأشياء ولكن
تغير عن تصورها الخاص لهذه الأسور .. لهذا راحت

لتساعل عن نسبة الحقيقة فى هذا كله .. مثلاً هل تفصل
مطار (بن جوريون) أربع ساعات عن (رام الله) ؟
لا تعرف .. لكن خيالها جعل الأمر كذلك ..

هل نقاط التفتيش بهذا الشكل ؟ هل الطريق بهذا المنظر ؟
لا تعرف .. وتفتت لو ترى هذه الأرض الغزيرة مرة أخرى
فى عالم الواقع ..

عندما تراجلت من السيارة اقتداها (سلمان) عبر طرق
متعرجة يلعب فيها بعض الأطفال .. أطفال رانعو لجمال
يرمقونها بعيونهم الواسعة ..

فى النهاية ترى تلك اللافتات التى تدعى العدو
الاسرائيلى وتظهر شارون وقد علق شارة القارية على
نواحه أو رسم له شارب (هتلر) .. كانت العبارات على
اللافتات مكتوبة بالفرنسية أو الإنجليزية ..

وهناك وسط الأطفال وفوق ماسورة صرف غير
مستخدمة جلست مجموعة من الشباب والشابات .. بينهم
غريون كما هو واضح من الشعر الكثيف ولون البشرة ..
لكنهم يوطون الكوفية الفلسطينية الشهيرة على أكفهم ..
كانوا يداهون الأطفال الفلسطينيين ويضحكون ..

بالفرنسية قال (سلمان) للشباب فى مرج :

- « هذه (ماريا) .. أرجنتينية .. وأشر للشباب
هؤلاء هم أصدقاء العرب الذين جاءوا من بلادهم في
بدنوا الاحتلال الإسرائيلي .. وإنهم يلقون أشد العنت
من السلطات هنا ، ويرغمون على نزع ثيابهم كاملة
في المطارات ونقاط التفتيش . لكنهم مصممون على أن
يؤدوا رسالتهم .. »

صافحها بعض الشباب في حماس .. وهتف أحدهم :

- « يوشك هذا المعسكر أن يتحول إلى الفلاشكية ..
لدينا ثلاثة أسبان وأرجنتينى آخر .. »

تساجلت فتاة بدينة زرقاء العينين :

- « صحيح .. أين الأرجنتينى ؟ »

- « أين (ريكاردو) ؟ »

أرجنتينى ؟

صحيح .. أين هو ؟

تشم (عبير) رائحة السيجار أولاً .. ثم تراء .. يخرج
من بوابة مدرسة أطفال على بعد عشرين متراً .. إنه
هو .. صحيح أنه قص شعره وأزال لحينه لكن العينين

لا تكذبان .. عينا القويان هما هما ، لكن فيهما حيوية
وتشأط عارمين .. كأنه ولد من جديد ..

الصورة ذكرتھا نوعاً بـ (جيفارا) الأصلي عندما
كان متذكراً كرجل اتصال يزور الكونغو .. طبعاً كان
منظره مغروباً في كل أرجاء الأرض ، لذا أزال لحينه
ووضع العيونات وحلق شعر رأسه ليدو كأن الصلح قد
زحف على مقدمته .. نفس التفكير يتكرر هنا تقريباً ..
لكن لا يقتر تنكر على خداعها هي ..

لقد آتفن خطته .. إن البلاد تعج بنشأطى المسالم ،
فما أسهل أن يذوب وسطهم كغائط لا تبنى آخر ..

لم يكن يردى تلك الثياب شبه العسكرية بل يلهم
قميصاً شبيهاً وسروالاً من نوع (الجيتر) .. مما جعل
منظره غريباً .. ثمة أشخاص يكتبون في ثياب بعضهم
فلا تتخلل منظرهم في ثياب أخرى .. مثل عدة القرية
الذى يزعم على ارتدائه بذلة أو أمها لو ليست ثوباً
قصيراً .. (جيفارا) من دون بزة عسكرية وبيريه يبدو
مغيباً نوعاً ..

- « (ماريا) !! »

لذا هتف وركض نحوها فتأخر راعيه ..

« لا تلعبنى .. هذه مكافئتي الوحيدة ! »

تذكر هذه العبارة في اللحظة الأخيرة أترجع واصلحها ..

ثم هيس ، وهو يذو منها :

« أرجو أن تكوني قد وجدت (سلمان) بسهولة ..

لقد طلبت منه أن ينتظرك مهما تأخرت .. ما كنت

تجديتي من دون عونه .. »

« إنه رجل شهيم .. »

« كل من يعملون معي راحون ومحل ثقة .. »

كانت هي قد قامت بالخطوة الأولى في البحث عنه ..
لقد طلبت من صديقة أرجنتينية لها اتصال في إسرائيل
أن تقتل عن والده أرجنتيني جديد .. والده يخدم في سيجار
ويعمل في زهر .. والده يتكلم عن الإمبريالية وثورات الشعوب
ويحاول أن يجمع الرجال حوله ..

كانت هذه هي الخطوة الأولى ، الخطوة الثانية قام هو
بها عندما أبلغها أنه سرتب لها كل شيء إذا جاءت إلى
إسرائيل ..

وهكذا تم اللقاء بعد أربعة أشهر .. وقد يجمع الله
الشقيين بعد ما

قال لها باسم :

« المعارضات المركزية لا تقدر على العثور على
مهما حاولت ، بينما أنت استطعت هذا .. »

« لأنني أعرف طريقة تفكيرك .. أين يمكن أن يوجد
(سسي عسارة) الذي غادر العراق ، إن لم يكن في
فلسطين ؟ كنت تكلم إسرائيل كما كنت (أمريكا) .. »

« إنهما وجهان للنفس ذاتها .. العرب يتصورون
أن إسرائيل دولة مدغلة لدى الولايات المتحدة لا أكثر ..
أنا عقلت عن ذلك واعتبرتها جزءاً أصيلاً من الولايات
المتحدة .. ولاية جديدة .. هذا يفسر أموراً كثيرة
ويسهل التعامل معها .. لا يمكن أن تتغلب أمريكا عن
إسرائيل إلا لو تغلبت عن أولادها أو كاليفورنيا .. ذلك
من أن النشأة واحدة وهذا يحدد أسباب الخلل لدى
الأمريكيين .. هم قاموا على جيش الهندوس الحمر ..
وإسرائيل تحاول القيام على جيش الفلسطينيين .. »

ثم طوح بالسيجار ، وقال في مرج :

« سوف نلقين بالراحة وحمام دافئ في بيت
صديق عربي .. ثم أمضى لك عشاء لذيذ هنا .. »

١٤ - بداية جديدة ..

ثبت الياسمين والريحان في كل مكان .. غوية البيت فلسطيني كما صورتها نوما .. صورة (جيفارا) على أكثر من جدار .. الغريب أنك تجد صورة القنشي إلى جانب بعض الآيات القرآنية لموضوعة في إطار ذهبي .. وصورة القبة الخضراء .. هذا الطليط ممكن إذن وليس مستحيلًا ..

قال لها الأب وهو رجل في الخمسين عثت الشارب أصلع الرأس يدعى (زياد) :

« كنت أنا شابًا عندما بدأت منظمة (فتح) صليتها وبدأ الناس يسمعون عنها .. بالنسبة لنا جميعًا كان (جيفارا) أسطورة والرمز الذي يفودنا .. قيل إعلان خبر موته كان شاب يدعى (مازن جودت أبو خزالة) يخوض معركة في منطقة (طوبلس) استمرت ثلاثة أيام .. وقد فجر نفسه في الإسرائيليين عندما ألوشك على المسقوط في قبضتهم .. هذا القتي كان من تلاميذ (جيفارا) ولم يمر أن أسناده مات قبله ببومين .. لقد ألهم (جيفارا) جيلاً كاملاً .. »

سأنته وهي لتخصص مواضع كلماتها :

« هل تعرف ذلك الرجل (ريكاردو) ؟ »

« قبل شهر لم أكن أعرف عنه حرفاً .. إنه صديق أرجنتيني مثل (جيفارا) وهو يتكلم عنه طفلة الوقت .. لقد راق لي هذا .. »

كان الابن شابًا متفتحًا أقرب في الميول إلى المقاومة الإسلامية .. هذا منطقي .. الأب من جيل الثورة ومقاومة الإمبريالية ، والابن يعمل له (حماس) وإن لم يرفض ميل أبيه الواضح لجيفارا .. هذا يفسر اجتماع صور (جيفارا) مع صور القبة الخضراء .. أما الأم فكانت امرأة فلسطينية طيبة تفكرها بأبها هي ذاتها .. وذلكت من ذلك عندما قالت لها المرأة في لوحة :

« أنت جميلة جداً .. ألا نلتكن جيدًا ؟ كيف لفشاء خطوة مثلك أن تقبل كل هذا بلا زواج ؟ »

ضيفة على هذه الأسرة الفقيرة الطيبة جلست على الأرض في جنباب عربي مزركش تتناول المشف معهم ، إن صديقة (ريكاردو) صديقتهم بالتأكيد ..

تشرب الشاي ثم تدعوها الأم لساعات من الراحة في فراش أخته لها ..

إنها أول ليلة تمضيها في فلسطين حتى لو كانت فلسطين (فلسطينا) ..

في الصباح دق الباب ..

كان القادم هو (ريخاردو) أو القنصل نفسه ..

يسأل عن القور بلا حرج ولا مشكلات كان هذا بيته ..

رحب به الأب فجلس على الأرض واشعل السيجار الشهير . ثم بدأ حواراً بالإنجليزية معها حتى لا يتلصع أحد ما يقال :

- « يبدو أن هذه البلاد ستروق لي .. إن أعضاء حركة فتح كلهم يعتبرون أنفسهم أبناء (جوفارا) .. في ذلك العصر الذي قام بالبيان بعملية انتحارية من أجل الفلسطينيين في أوروبا في مكتب شركة العسل . متجاوزين بذلك حدود الجنسية .. وكان مسلسل خاطف الطائرات في ذروته .. صورة القنصل في كل بيت من

بيوت هؤلاء .. صحيح أنهم تقدموا في العصر . لكن عالمهم ينسحب .. »

قالت (هير) محاولة ألا تبدو كغراب البين :

- « لكن الأمر ليس بهذه السهولة .. في العراق هناك حالة عامة من اللامركزية والفوضى . لكن هنا سوف تصطدم بالسلطة الفلسطينية أو الحكومة الإسرائيلية .. هناك صغيرة غير مترامية الأطراف والحركة صغيرة .. وعكس من أنك ستواجه ذات المشكلة التي واجهتها في العراق .. أينولوجيتك لم تعد تصلح . والمقاومة الوحيدة الفعالة هنا ديلية .. »

- « ومن قال إن مهمتي سهلة ؟ »

عندما جاءت الظهيرة اضطجبت في المدرسة القديمة .. هناك كان نحو عشرة من الشباب الفلسطينيين يجتمعون في لقاء .. ثم تكن معهم أسلحة .. لكنهم كانوا يعملون الرجال باحترام بالغ ..

قال بالعربية لها وهو يشير لهم :

- « هذا (راسم) .. هذا (محمد) .. هذا (أياد) ..

هذا (عبد الله) .. »

بالطبع كانت قد نسبت الأسماء كلها عندما وصلت إلى الاسم الرابع .. لكنها راحت تهزل رأسها محيية .. كانت هيونهم تلمع بالعزيمة والتصميم كيطلق الفصص ..

عندما قدم العشرة قال لهم وهو يشير لها :

« (مازيا جوتز ليس) .. لرجلتيبة مثلى .. مرسله شبكة CDN .. »

قال أحدهم مملوحاً :

« لكن ليس معك مصور ولا كاميرا .. »

قالت في شيء من الحرج :

« لم أت لهمة رسمية .. قل لى هذا للسلطة .. »

« هذا ما يقولونه للإسرائيليين .. »

« كنت أريد السؤال عن شيء مشابه .. ليس بينكم واحد مسلح .. »

قال الفتى الذى عرفنا أن اسمه (عبد الله) :

« نحن فى مرحلة التثقيف الشورى كما يقول (ريكاردو) .. لن يسمح لنا بحمل سلاح إلا بعد أن يدرك أننا صرنا نعرف ما نفعله .. بعدها يبدأ التكريب على السلاح ثم لنطلق .. »

« طريقكم شاق وطويل .. طويل أكثر من اللازم .. »

أخرج (جيفارا) نصف سيجار من جيبه . وقال وهو يشطه :

« لقد اعتكيت هذا .. لاحظى أنك لم ترى ما قمت به فى العراق كى اصنع لك الجيش الصغير .. هذه هى نصف المتعة .. أن يتحول الشباب العلبث إلى جنود .. »

« ومن أين تتوى الحصول على سلاح ؟ »

« أخص وأسهل طريقة هى شراءه من الإسرائيليين .. لاحظى أن لنا أصدقاء كثيرين فى (فتح) وهم يعرفون مسالك بلدكم وأساليب التعامل مع هؤلاء القوم .. »

ثم أخرج كتيبا له غلاف أحمر ويمثل حجمه نصف هذا الكتيب الذى بين يديك الآن .. وجلس على رمال القاء وقل للشباب :

« اتحوا كتيكم .. »

أدركت بون جهد عنوان هذا الكتيب .. إنه تعليمات (ماو تسي تونج) .. لقد كان (جيفارا) يحترم الصينيين . وبالذات (ماو تسي تونج) .. وقد درس أفكاره دراسة متقنة .. والحقيقة التى لا يعلمها كثيرون هى أن الصينيين سبب وجود هذه النسخة للجيتة فى عالمنا ..

أخرج كل شاب شيئاً مختلفاً من حقيقته .. بدأ (عبيد)
أن التاريخ عاد للوراء ثلاثين عاماً .. مستحيل أن ترى هذا
المشهد في القرن الواحد والعشرين .. لكنه حقيقي ..
وهكذا جلست كما تقال في كل مرة لقول القليل وتصفى ..

* * *

نمر الأيام .

وتبدأ العمليات غريبة الطابع التي تستعمل فيها
أساليب عتيقة لكنها فعالة ..

كنت الصحف الإسرائيلية عن هذه العمليات التي لم
تتلها أية جهة . وبدأ ذلك الهاجس الأمني من جديد ..
العمليات ذات طابع (قنصوي) لا شك فيه . لكن
التكرار المعروفة من (فتح) لم تنفذها ..

فقط تذكر ضابط مخابرات بارح يدعى (سموتاي باريف)
شيئاً مماثل .. شيئاً سمعته في تقارير الأمريكيين التي تأتي
من العراق يومياً .. تذكر كلاماً غريباً عن رجل يتصرف
مثل (جيفارا) وينفذ أساليب . مع كلام أعجب عن تجربة
استمساخ تمت بخبرات صينية في أوائل السبعينات ..

« استمساخ ؟ .. صين ؟ .. سبعينات ؟ »

بدأ الأمر جنوباً مطيحاً لكل من سمع عنه . لكن
(باريف) كان ذنباً .. بتلك النظرة الوحشية على وجهه
والضحكة الشيطانية . مع طريقته في التظاهر باللطف
والرفقة إلى درجة الاثوثة .. ترى هذا كله فتدرك أنه
ليس بالخصم السهل ..

كان (باريف) ذنباً لهذا لم يسطر من الفكرة كما فعل
الآخرون .. أرسل عملاءه يتبعصون ويراقبون ..
واتصل بالأمريكيين في العراق . أولئك الذين عملوا مع
رجل مخابرات اسمه (مورلون) ..

وكانت التقارير كلها تتحدث عن مجموعة من الرجال
يقودها رجل أرجنتيني يدعى السيجار بثقافة . وقد كاد الربو
يقضى عليه .. لقد بدأ في تسليح هذه المجموعة الصغيرة
وهو لا يكف عن التنقل من قرية لأخرى يدعو لحركته ..

أقواله في (الشين بيت) :

« نحن نلتزم إذن عن مجنون بقوله (جيفارا) .. »

قال لهم :

« وأنا ألتزم عن (جيفارا) نفسه وقد ظهر في

إسرائيل ا »

* * *

١٥- نهاية جديدة ..

البلدة حتى افكارها لمعبت كفت تدعى (كفر الهجورة) ..
 قرية صغيرة قرب (رام الله) ولد فيها واحد من
 رجاله ، وكان يعرف مسالكها وأهلها جيذا ..

هكذا للمرة الألف وجدت (عبير) أن عليها قضاء
 الليل في مدرسة مهجورة صغيرة .. إن الليلة التي
 تقضيها بين أربعة جدران سليمة أو في حظيرة هي ثلثة
 لا يمكن أن تعلم بها ..

جلس الرجال المنهكون على الأرض وخلع أكتفهم
 حذاءه مما جعل الرائحة غير محببة ، وقال (جبيلارا)
 وهو يتأمل الأحذية :

« أحذيتهم بدأت تبنى .. ذكرتهم بأن فنش مصنع
 أحذية في قرب فرصة .. »

« سأفكر هذا .. »

لم يتخلص بعد من عبدة الحذاء المثنين .. يحتاج
 الأمر لمحل نفسي أكثر منه إلى خبير عسكري ..

سك الصمت فيما عدا صوت القضم والمضغ .. فرجال
 يتناولون الغشاء .. لابد من الشاي وقطيع يمكن تسخينه
 هذه المرة لأننا لسنا بين الأطلال ..

سلته وهي ترشف كوب الشاي الورقي الخاص بها :

« حتى هذه اللحظة لم يتجاوز عملك الانقراض
 على نقاط تقشيش .. غارة جيدة .. السحاب ملهم ..
 تلهم جثث القتلى .. لكن ما هي استراتيجيتك ؟ »

قال وهو يشعل السيجار :

« نحن بقعة نار صغيرة .. استراتيجيتي هي أن تنتشر
 البقع في أكثر من موضع في فلسطين .. آلاف البقع .. هذا
 هريق لا يقدر الإسرائيليون على السيطرة عليه .. يجب
 أن يتحرك عرب فلسطين لأن هذه هي الطريقة الوحيدة
 لتجاوز الجدار العازل .. يجب أن نتعلم طهر الانطلاق
 وأن يدخل من هم خارج الجدار العازل إلى الدخول
 الإسرائيلي .. عملية هنا وعملية هناك .. إن استراتيجيتي
 هي نشر الثورة في كل مكان .. »

« وهل هذا كاف ؟ »

« سوف يرغم إسرائيل على الاعتراف بحقوق الفلسطينيين .. سيصير وضعهم أفضل .. »

كنت تشعر أن الأمر ليس بهذه السهولة .. هذا الوقت على البلاد منذ أشهر يعتقد أنه قادر على تحقيق ما تجاهد منظمات فلسطينية عدة للقيام به منذ سنين عانا .. إنه حلم كبير كما كان دائما .. ومن الواضح أنه لن يتوقف أو يلقى ..

لهذا يبدو أحيانا كأنه سلاح كطفل .. إنه لا يعنى جيدا حقيقة ما يدور من حوله ولا حقائق القوى ..

وتكررت على نفسها في لركن وتناعبت كالأسد وبدأت تقيب في عالم الغماس .. عندما سمعت صوت الخطوات ..

فتحت عينيها فوجدت أنهم مطوفون بالجنود الإسرائيليون !

مد (جيفارا) يده إلى ينفثته الآلية .. من الغريب أن آليا من الجنود لم يحاول منعه .. صوبها إليهم وضغط الزناد ..

لكن الموت لم يخرج من الفوهة .. خرج صوت غريب يقول (بلوف بلوف بلوف) .. نظر الفوهة في استعزاز ثم

القلى بالذهنية على الأثر .. وهذا يده إلى جراحه .. يخرج المستمس .. تكون طلقة دوت في أرجاء المكان .. وركت (عير) القلى بنظر ليداه غير مصدق .. الدم يسيل منها كالمنظر ..

قال لده الجنود بالعربية (الإسرائيلي) القلى تمديد الاستعزاز لمن يسمعها :

« لا تقاوم ! إن طاعتك استلحتكم (فكتك) كلها .. »

رفع الرجل العشرة أيديهم لأعلى فأمروهم جنسدى إسرائيلى بأن يضعوها خلف الظهر .. ثم دار عليهم يربط معاصمهم بحبال من البلاستيك .. فقط قلت (عير) و (النشى) واقفين بلا قيود ..

« خذوهم إلى السيارة .. »

هست (عير) في أن (جيفارا) :

« ماذا حدث ؟ »

قال وهو يضغط على لسانه من فرط الألم ..

« خيانة كالعادة .. هناك عميل لهم بين وجدا .. »

بدل لخبرتنا ونحن نيام .. »

« من هو ؟ »

« لن نعرفه .. إنه أحد هؤلاء العشرة المعقدين ..
لن يفضحوه ! لأنه قد يصلح مرة أخرى .. »

كان صف الرجال يتحرك إلى الخارج ، بينما أمر أحد
الجنود (عير) و (جيفارا) بأن يبقيا حيث هما .. وفي
هذه المرة قام بتقييدهما بهذه الحبال اللينة الأقرب إلى
السلك الخفيف ..

وفجأة ودون سابق إنذار تهال الرجل على التشى
وقلاً ولكم .. حتى أنه سقط على الأرض والدم يسيل
من أسنانه .. صرخت (عير) غير مصدقة :

« أتم وحوش ! ماذا تفشون من رجل مفيد جريح ؟ »

لكنها العادة الصهيونية الراسخة .. لماذا أولئك ؟
لأنك أضعف من أن تؤذي .. هذا سبب كاف ..

ولكن التشى لم يمنحهم أي بهجة أو رضا .. كان
يتلقى الضربات وهو يتصم .. ونظرة التحدي في عينيه
لم تتزعزع ..

شعرت بأن هذا الموقف مألوف .. متى حدث هذا ؟

ثمة شخص يدخل من باب القاعة فتوقف الطفل ..
ميرت (عير) السترة الخلفية والرأس العاري والبيرويه
الذي يضعونه يوماً تحت (سيلايت) السترة .. عدة رجال
جيش قذافي .. حتى أن أي ممثل مصري يريد تقليد ميمند
إسرائيلي يبدأ قبل كل شيء بوضع البيرويه هناك ..

الرجل يمشي بثقة وتؤدة .. كل شيء يدل على أنه
زعيم هؤلاء .. يخرج من الظل ليصير في نور الشمس ..
يضع جهازاً لاسلكي على أذنه ويتكلم :

« نعم .. نعم .. قل لهم إن باباً معنا .. وهو مريض .. »

ينزع نظراته السوداء ويرمق (جيفارا) و (عير)
تلحظة ثم يصيح :

« إما أن تشرك بلع جداً وإما أن هذه الحيوانات
أسأت معاملتك أكثر من اللازم .. »

ثم ساعده على الجلوس .. ويخبر من الحضان راح
ينظف جراحه بمنديل ورقي .. ثم قال :

« فكرة خلق التحية والعوينات ممتازة .. لدينا في
(تشين بيت) عدة صور لك ، وقد علقناها حسب

الاحتمالات المختلفة .. إن برنامج (أوب فوشوب) لدى صورة لك وأنت لشرف أرق العينين .. وصورة وأنت تتذكر كسطري الروك .. لكن وجهك الحالى ليس ذنن الوجوه التى لدينا ..

ثم اتحنى فى احترام وقال :

« يمكنك أن تدعوني (ياريف) .. (أوتاي ياريف) .. لا قيمة للأسماء الحقيقية فى عالمنا .. خذك المطيع صاحب فكرة استكراكك إلى هذه القرية .. عييتنا قام بالتأكد من أنك لن تقتل إسرائيلنا آخر .. يجب أن تعرف أننا لن نسمح بوجود (جيفارا) هنا فى أرضنا .. إن الانتحاريين الفلسطينيين جعلوا الحياة معقدة بما يكفى فلا ينفصلنا ثمر من أمريكا اللاتينية .. لاحظ أننا لكثير براعة وفرة من الأمريكيين والسبب إلهم لسوا قانون الاحتلال .. »

ومد يده يبحث فى جيب التنشئ حتى أخرج نصف سيجار ، وقال بامسماً :

« سيجار كذلك ! يبدو أنك ملتزم بالقواعد حرفياً .. »

ونمسه بين شفتي الرجل ثم ألقاه له .. راح التلخا يتصاعد كثيلاً من منخري الثنين المقيد ..

قال (ياريف) وهو ينفخ عود التلقاب :

« لأسباب تتعلق بالعدالة الشعرية خطر لى أنه من اللطيف أن أدعوك إلى هذه القرية .. (كلر الهجيرة) .. هل لاحظت الاسم ؟ »

هتكت (عبير) فى ذهول ، وقد فهمت :

« (الهجيرة) .. (لا هجيرا) .. »

قال الرجل فى لطف :

« نعم .. أنت ذكية يا صغيرتى .. لاحظنى تشابه الاسمين .. وهذه مدرسة خالية .. »

صاحت فى غضب :

« إنه مواطن أرجنتينى .. ليس يوسف أن توثقه .. »

« نعم .. نعم .. التمثلان الدبلوماسية .. لهذا لن تكون هناك محاكمة .. للأسف لن تكون هناك محاكمة ولا تحقيقات .. سوف لنهى الأمر هنا والآن .. »

« لن تنجو من هذا .. »

« يا نفس .. سوف نلك قبوده وسوف يجدونه
مقتولاً .. عندها تنهم (حماس) أو (الجهاد) .. إن
خير (تطور على جثة سائح أرجنتيني في إسرائيل)
لن يبدو غريباً وسط هذا الجحيم .. »

ثم مد يده إلى حزامه وأخرج مسدساً صوبه إلى
رأس الشمس ..

نظر له الشمس في ثبات والسيجار بين شفتيه وقال :

« لا تفعل إلا بعد أن أنهض على نفسي .. علم ..
الشمس .. أنت فقط تقتل رجلاً .. »

انطلقت الرصاصة لتجد طريقها بسهولة وسط أنسجة
الصدر الذي امتلأ بحب المظلومين وكراهية الظالمين ..
وسقط الشمس على الأرض ..

عيني عليه ساعة القضا

من غير رفاته تودعه

يطلع أينسه للفضا

يزعل .. ولا من يسمعه

يمكن صرخ من الألم

من لسعة النار في الحشا

يمكن ضحك .. أو تبسم .. أو ارتعش .. أو تنثني

يمكن لقط آخر نفس

كلمة وداع لأجل الجراح

يمكن وصيه .. لتي حاضرين القضية

في الصراع ..

صور كثير .. ملو الخيال

وألف مليون احتمال ..

لكن أكيد ..

أكيد أكيد

ولا جدال ..

جيفرا مات مائة رجل ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

قال (ياريف) للجنود الواقفين حوله :

« أطلقوا الرصاص كما يحلو لكم ، لكن لا أريد طفلة فوق الخصر ! أريد أن يظل وجهه سليماً ! »

وهكذا أطلق الرصاص .. كل رصاصة حكمت تتجهز في أعصاب (عير) وأقربها وعقلها .. حكمت تصرخ وتصرخ بينما الجثة تتلوى كان لها حياتها الخاصة ..

عندما توقف إطلاق النار ، وعندما بدأ الدخان ينقش وبدأت أذناها تسمعان ، نظرت بعينها الداعيتين إلى (ياريف) فوجدته ينظر لها في ثبات ، وقال :

« معزة يا صغيرتي .. أنت تقدرين موقفي .. لا أحد يحقد عليك لثقتنا لا أريد شهوداً .. »

كان عليها أن تتوقع هذا ..

يرفع المسمس نحو رأسها .. تلك النظرة الطون الرقيقة تثير جنونها .. لا يجب أن يكون هذا آخر مشهد تراه على وجه الأرض .. لا يجب ..

هنا سمعت من بصيح :

« توقف ! »

ثم شعرت بيد توضع على كتفها ..

يد المرشد .. إنها تعرفها من بين ألف يد ..

يتراجع (ياريف) ومعه يتراجع الجنود الإسرائيليون ليفسحوا المكان وقد بدا بوضوح إليهم لا يشعرون أن ينفذوا الأمر .. لكن لا مجال للتفاوض هنا ..

« أنت تأتي في الوقت المناسب دائماً .. »

« لن أترك الامتناع في (القنزيا) يقضى عليك .. »

ثم يقول المرشد وهو يفك قيدها :

« أعتقد أنك لتفكر بهذا الفكر .. القنسي قد لاقى

نهايته من جديد .. لكن نهايته مكتوبة منذ اللحظة التي

جاء فيها العالم .. إنه العالم الأخير في عالم يفرس

الأحلام .. إنه لم يغير الكثير في الواقع لكن كثره لن يمحى من النفوس .. »

نظرت إلى جثته الفارقة في الدم ، وقالت داسعة :

- « هل نتركه هنا ؟ »

- « بالتأكيد .. أعتقد أنهم سيتكفون له بعض الصور ..

هيا بنا .. »

قالت وهي تتجه معه إلى الباب دون أن تنظر ثوراء :

- « كم مرة جئت أنت لي وأنا أرفع بكية جوار جثة ؟

لقد صار هذا مملاً .. (سيبويه) ثم (جيفارا) ..

(هابيل) .. إلخ .. أين ينتهي هذا ؟ »

- « عندما تكفين أنت عن اختيار أبطال لا تكتمل

بطولتهم إلا بالوفاة .. »

ترى الشمس في الخارج وترى أرض فلسطين ..

لكنها ترى كذلك قطار (فانتازيا) يستعد للحركة ..

يا شغالين ومحررومين ..

ومسلمين رجلين وراس ..

خلاص خلاص .. ما لكوش خلاص

غير بالبنافق والرقصا

دا منطلق العصر السعيد

عصر الزلوج والأمريكان

الكلمة للتجار والعديد ..

والعدل أكبرس أو جيان ..

أحمد فوزك نجم ١٩٩٨

* * *

في القصة القادمة تجد (عبر) نفسها بين ساحر

وأديب .. ساحر لا يؤمن بالسحر وأديب يؤمن به ..

وقلا الطرفين يحاول إقناع الآخر برأيه .. إنها قصة

غريبة لكنها حقيقية ..

تمت بحمد الله